

الاختيال السياسي
في الإسلام

الاعمال الكاملة

هادي العلوي

Author :Hadi Al Alawy
Title :The Political assassination in Islam
Al-Mada P.C.
Second Edition :year 1999
Third Edition :year 2001
Copyright © Al-Mada

اسم المؤلف : هادي العلوي
عنوان الكتاب : الاغتيال السياسي
في الاسلام
الناشر : المدى
الطبعة الثانية : سنة ١٩٩٩
الطبعة الثالثة : سنة ٢٠٠١
الحقوق محفوظة

دار  للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .

Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

E - mail : al - madahouse @ net.sy البريد الالكتروني :

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

الكتاب الثاني

الاغتيال السياسي
في الإسلام

هادي العلوي



مفهوم الغدر. لكن الفتاك أعم فهو يشتمل على جملة أركان تكتف الفعل: العمد، الاستغفال، الاندفاع غير المحسوب، الجرأة والإقدام، ونجد هذه الأركان مجتمعة في صفة الفاتك التي ترد في معانٍ تتراوح بين الإعجاب وعدم الارتياح. ولذلك لانجدها تستعمل لوصف الشخصيات التاريخية المشهورة بالشجاعة مثل علي بن أبي طالب مع أنها تطلق مع الإشعار بالمهابة على الشجعان العاديين. من هنا ينفرد الاغتيال بالدلالة على القتل العمد المشتمل على أحد ركين :

- ١- استغفال المقتول، كأنْ يأتيه القاتل من ورائه، أو يكمن له . ٢ - أو استدراجه للإيقاع به في مكان معزول.
- والاغتيال هو اللفظ الشائعاليوم، والذي يجب أن تقتصر عليه المعاجم الحديثة، دون قتل الغيلة لأنَّه مهجور في العربية المعاصرة ولأنَّ الأفضلية في الاستعمال يجب أن تكون للأصطلاح المؤلف من كلمة واحدة.

الفصل الأول

الحكم الشرعي وتجارب العهد النبوى

أورد الفخر الرازى في تفسير الآية ٢٨ من سورة الحج من «تفسيره الكبير» (إن الله يدافع عن الذين آمنوا. إن الله لا يحب كل خوًان كفور..). إن مسلمي مكة استأندوا النبي على قتل المشركين الذين آذوه، سرًا، فنهاهم ونزلت الآية لتأكيد هذا النهي.

وفي هذا المعنى يرد حديث أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد من سننه ، نصه .. «الإيمان قَيْدُ الفتَّكِ . لَا يَفْتَكِ مُؤْمِنٌ».. وقد تردد هذا الحديث في أخبار قتل الحسين، إذ يروي أبو الفرج الأصفهانى في «مقاتل الطالبيين»^(١) أن مسلم بن عقيل استشهد به حين دافع عن عدم تنفيذه لخطبة رسمها له قائده شيعي بالكوفة لاغتيال عبيد الله بن زياد. ويمكن قبول صحة الحديث في ضوء الآية الآنفة من سورة الحج، وهو يشكل بالتكامل مع الآية موقعاً شرعياً غير محبذ للاغتيال

(١) ص ٩٩ من . طـ القاهرة ١٩٤٩ (باب مقتل الحسين) . انظر أيضاً : «الأخبار الطوال» للديبورى ص ٢٢٦ مصر . ١٢٢-

أصلين (عرب) وقبائلهم الرئيسية هي بنو النضير وبنو القينقاع وبنو قريطة، إلى جانب يهود خiber خارج يشرب على طريق الشام. وكان محمد قد سعى أول هجرته إلى التحالف معهم ضد مشركي مكة على أساس العقائد المشتركة للديانتين. لكنه أخفق، لأنهم توقيعوا أن انتشار الإسلام سيضعف موقعهم في جزيرة العرب. وقد لعبوا في المدينة دور الرتل الخامس المؤيد لقرיש ضد الإسلام، فكان محمد أن يسعى لأضعاف تأثيرهم عليه. وكانت وسيلة المبكرة إلى ذلك هي الاغتيال، الذي وجه للتخلص من عناصر مؤثرة بينهم. وقد نفذت ضدهم خمس خطط اغتيال نستعرضها فيما يلي:

كعب بن الأشرف :

زعيم يهودي بارز والده من قبيلة طيء وأمه من بنو النضير وكان حليفاً لبني قريطة أقوى عشائر يثرب اليهودية. نشط ضد محمد منذ أول الهجرة وكان من حلقات الاتصال الأساسية بين اليهود وقرיש. وبعد معركة بدر ذهب إلى مكة ليحرض قريش على التأثر لقتلاها في تلك المعركة. وكان يقرض الشعر فنظم قصائد يعرض فيها بناء الصحابة وأنشد في مكة قصيدة في رثاء قتلى بدر من أهل مكة. وتقول مصادر السيرة إن ذلك مما أغاظ النبي كثيراً. لكن خطوه في الحقيقة لا يتمثل في هذا الجانب، لاسيما وأن شعره، بحسب الأمثلة التي أوردتها هذه المصادر، لم يكن في مستوى شعر الفحول الذين يُخشى من جاذبيتهم، وإنما يكمن في موقعه القيادي بين يهود يشرب ونشاطه التآمري الواسع.

للخلاص من عنصر خطر كهذا تقرر اغتياله. وقد وردت تفاصيل العملية في روایات مختلفة يقلب عليها الاضطراب والابتصار، وأقدم هنا خلاصة موحدة بالمحفوظات الرئيسية، المقبولة عندي، لهذه الروایات.

اختار النبي صاحبهاً يدعى محمد بن مسلمة عرف بخبرته في حبك المكابد - اعتمدته عمر بن الخطاب فيما بعد للتجسس على الولاة - وأمره بالتشاور مع زعيم الأوس سعد بن معاذ. وكان الأوس حفاء بني قريظة في الجاهلية، فهم يعرفون بعضهم جيداً كما توطدت بينهم علاقات شخصية استمرت بعد الاسلام. وتقول المصادر إن محمد بن مسلمة اختار لتنفيذ المهمة نفراً من الأوس، وهو نفسه أوسي، بينماهم رجل يكتن أبو نائلة كان هو وابن مسلمة رضيعين لکعب بن الأشرف. وتمت الخطة على مرحلتين؛ ذهب أولاً محمد بن مسلمة أو أبو نائلة - بحسب اختلاف الروايات - إلى کعب وقال له إن هذا الرجل، يعني محمد، قد طلب منا صدقة وإنه قد عناننا وإنني قد آتيتك أستسلفك. ورأى کعب في هذا الكلام من رضيعه مصداقاً لتحذيراته لهم من محمد فعقب عليه: وأيضاً، والله لتملنه. فقال صاحبه: إننا قد اتبغناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يشير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين. فوافق کعب أن يسلفهم لقاء رهن. واتفقوا على موعد.

ورجع ابن مسلمة - أو أبو نائلة - إلى جماعته فأخبرهم. وتوجهت المجموعة لموعدها ومعها النبي محمد يسايرها حتى البقيع - من ضواحي المدينة - حيث بقي في انتظارهم. ولما بلغوا قلعة کعب ناداه ابن مسلمة أو أبو نائلة فنزل إليه فعرفه على جماعته، وتمشوا خارج القلعة للتحدث في الشأن الذي تواعدوا عليه. ولم يطل بهم المسير حين مد ابن مسلمة أو صاحبه يده إلى رأس کعب، ثم سحبها ليشمها وهو يقول مداعباً إياه: ما أطيب عطرك. وكان کعب حديث عهد بالزواج من امرأة عرفت بكثرة التعطر. وبعد قليل أعاد المذكور هذه الحركة معتبراً مرة أخرى عن إعجابه بعبيره، ثم رجاه أن يسمح لأصحابه أن يশموه ليتمتعوا معه بهذه الرائحة

النادرة... وكانت هذه إشارة متفق عليها فتقديم أفراد المجموعة من كعب بوضعية من يريد أن يت sham شعره المطيب وأهواوا عليه بسيوفهم فقتلوا ثم قطعوا رأسه. وقد تمت هذه العملية بسرعة خاطفة لأنها نفذت في أراضي اليهود الذين انتبهوا على صرخة كعب لحظة ضربه فأشعلاوا نيرانهم فوق أسوار القلاع. وعاد المنفذون إلى البقيع ومعهم رأس كعب ووضعوه بين يدي النبي برهاناً على نجاح المهمة.

اغتيال كعب بن الأشرف في الشهر الثالث من السنة الثانية للهجرة، بعيد معركة بدر.. وقد اشتغلت عملية اغتياله على تكتيكات وأهداف نجملها فيما يلي:

- ١- اختيار شخصين قربين إلى المراد اغتياله لتسهيل استدراجه إلى الفخ.
- ٢- إيكال المهمة إلى رجال من الأوس وهم كما قلنا حلفاء بني قريظة. وبهدف هذا التكتيك إلى منع ردود الفعل المحتملة إزاء مقتله في أوساط الأوس.
- ٣- الناظهر أمام كعب بمعارضة النبي والاستياء منه، استغلالاً لوجود معارضة فعلية في يشرب سواء من المنافقين أو الناس الآخرين الذين لم يكونوا مرتاحين لما تعرضت له مدینتهم من مشاكل بعد هجرة النبي إليها، ويدخل ذلك في تكتيك الاندساس الهدف للإيقاع بالعدو.
- ٤- جعل العملية في الليل لتسهيل الانسحاب بعد القيام بها.
أما الأهداف التي وفرها الاغتيال فهي:
 - ١- التخلص من متآمر خطير على حركة ناشئة.
 - ٢- إرباب المناوئين للتخفيف من اندفاعهم ضد الحركة، لاسيما وأن نجاح الاغتيال قد بيّن لهم أن الحركة تمتلك أدوات ووسائل كافية

للردع. كما أثبتت لهم جدية محمد في المواجهة.

٢- إن هذا العمل قد يبيّن ليهود المدينة أن محمد ليس هدفاً سهلاً المنال كالسيح، ولعله قد أزال ما قد يكون تبقى بعد معركة بدر من أوهام بهذا الخصوص.

استنتاج فقهي خاطئ :

قال السُّهيلي في «الروض الأنف» الذي شرح فيه سيرة ابن هشام، إن الفقهاء - عدا أبو حنيفة - رتبوا على قتل كعب بن الأشرف حكماً بوجوب قتل من سب النبي وإن كان ذا عهد^(١). والحكم مبني على أن كعب قتل لأنه كان يهجو النبي. وقولهم «ذا عهد» يشير إلى ارتباط يهود المدينة في ذلك الوقت بميثاق يثرب الذي حاول النبي محمد أن يجعله إطاراً للتحالف معهم. وقد أكسبهم هذا الميثاق صفة أهل الذمة. وهذا من الأقىسة السطحية القائمة على مناطق شكلي، إذ لم يدخل هؤلاء الفقهاء في اعتبارهم أركان الحدث من جهة ارتهانه بحالة حرب وكون المقتول من قادة العدو المقاتل وكونه وبالتالي إجراءً سياسياً عسكرياً لا يصلح أن يكون سابقة، لحكم قضائي. وكم من الفرق بين هذه الحالة وحالة إنسان عادي يشتم النبي لغواً أو مهاترة. ولعل معارضته أبو حنيفة لهذا الحكم وعدم إجازته قتل من سب النبي مسلماً أو ذمياً هي نتاج هذا التفريق بين الحالتين. وأبو حنيفة معروف بدقة أحکامه وسعة أفقه في الاجتهد.

سلام بن أبي الحقيق :

كان من زعماء بنى النضرir والتحق بعد إجلائهم بخيبر ليستمر في مناهضة المسلمين من هناك. وهو من المحرّضين الكبار الذي

(١) ج ٢/١٢٢ - القاهرة ١٩١٤ .

عملوا على دفع قريش لشن هجومها الأخير على المدينة حيث وقعت معركة الخندق.. وكان قد ذهب في وقت يهودي إلى مكة لهذا الغرض. وبعد عودته وضعت خطة لتصفيةه. ومصادر السيرة تفيد أن البدارة جاءت من الخزرج وأنها كانت بداعي المنافسة مع الأوس، خصومهم القدماء الذين حصلوا على شرف اغتيال كعب بن الأشرف. لكن الفكرة لم تكن، مع صحة هذه المصادر، لغريب عن النبي الذي سبق أتباعه إلى إدراك الفوائد المترتبة على مثل هذه العمليات. وقد اختار لهذه المهمة مجموعة من رجال الخزرج وأمرهم بالتوجه إلى خيبر. وفيما يلي تفاصيل العملية:

كان على المجموعة أن تدخل حصن خيبر ليلاً، حسب الخطة، فتقدم أحدهم ويدعى عبد الله بن عتيك أو ابن عقبة من بوابة الحصن، وتظاهر بأنه يقضي حاجته خارج سور فصاح عليه الباب: إن كنت ت تريد أن تدخل فادخل أريد أن أغلق الباب. فدخل وكمن في معلم حمار قريباً من المدخل. وبعد أن دخل أهل الحصن في وقتهم المحدد دخل الباب وأغلق الباب وانتظر عبد الله في مكمنه حتى أقرب المدخل من الناس فقام وأخذ المفاتيح، وكان قد رأى أين علقتها البواب، وفتح البوابة. وكانت المجموعة تتضرر خارج الحصن فدخلوها. وكان الفسق قد حل، فتوجهوا إلى دار ابن أبي الحقيق فدخلوها. وكانت الدار أشبه بمجمعة تحتوي على عدة بيوت. ولم تصف الرواية كيف استطاعوا دخولها لكنها تذكر أنهم أغلقوا أبواب البيوت على أهلها من برة. ثم اقتحموا المنزل الذي يقيم فيه ابن أبي الحقيق، والرواية هنا مبتسرة لا توضح كيف اقتحموا المنزل. وعلى أي حال فقد وصلوا إليه فوجدوه مع زوجته على فراشهما. وكان البيت مظلماً ولكي يميزوه عن زوجته نادى عليه أحدهم فأجابه فرعاً: من أنت، فهجم باتجاه الصوت وضربه ضربة عشوائية بالسيف لم تصبه. ونهضت

امرأة في وجوههم فارتباًوا؛ لأن النبي أوصاهم أن لا يتسببوا في قتل امرأة أو طفل. غير أنهم استطاعواً أخيراً دفعها عنه وتناولوه بأسيافهم فأجهزوا عليه. وفي هذه الأثناء خرج أهل الحصن من بيوتهم على صراغ المرأة، فاختفى المنفذون في إحدى زوايا الحصن، فلم يعثر لهم على أثر لشدة الظلام. وعاد اليهود بعد أن يئسوا من العثور عليهم إلى زعيمهم فوجدوه قد مات، فانشغلوا به، وانتهت المجموعة هذه الفرصة فتسلىوا من الحصن.

إن اغتيال سلام بن أبي الحقيق يندمج في اغتيال كعب بن الأشرف ويحقق نفس الأهداف بالنظر للدور والمركز المتماثلين لكلا الزعيمين.

ابن سنينة :

هكذا ورد الاسم في المصادر. وكان من يهودبني حارثة. ولم تذكر له الرواية دوراً يتعدى هجاء النبي وال المسلمين بالشعر. تولى اغتياله بأمر النبي شخص يدعى مَحِيصة بن مسعود. وكان المقتول حليفاً لشقيق القاتل وهو حُويصة بن مسعود. وقد اغتاله بحضور شقيقه دون علم مسبق منه. وكان حويصة مشركاً متوفداً وقد اختار النبي أخاه محبيصة لهذه المهمة وهو مسلم، بخلاف أخيه، لتفادي مشكلات التأثر.

اغتيل ابن سنينة بعد اغتيال كعب بن الأشرف. ويؤخذ من الرواية التي تناولت الحدث أنه جاء في سياق التخويف لغيره لأن اليهود جاءوا بعد مقتله إلى محمد يشكون ماحدث فأجابهم: «إنه لو قر كما قد قر غيره من هو على مثل رأيه ما اغتيل. لكنه نال من الأذى وهجانا بالشعر». وكلام النبي هنا واضح فقد اغتيل الرجل لأنه نشط في المناهضة ولو سكت كما سكت غيره محتفظاً بوجهه نظره لسلم.

اغتيال امرأة :

ورد هذا الحديث في روایتين مختلفتين كثيراً، أحدهما في مصادر الحديث والأخرى في مصادر السيرة. روایة مصادر الحديث أخرجها النسائي وأبو داود في كتاب الحدود من سننها وملخصها أن أمي كانت له أم ولد (جارية - زوجة) وله منها ابنان وكانت تكثر الواقعة بالنبي وتسبه وهو ينهاها ويزجرها فلا تنتهي. ذات ليلة ذكرت النبي وأخذت بشتمه فتناول مغولاً (سيف قصير دقيق) فوضعه في بطنها ثم انكأ عليه حتى قتلها. وجاء الأعمى إلى النبي وقال له: يا رسول الله أنا صاحبها، كانت أم ولدي وكانت بي لطيفة رفيقةولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين ولكنها كانت تكثر الواقعة فيك وتشتمك فأنهاها فلا تنتهي وأزجرها فلا تنزجر. فلما كانت البارحة ذكرتك فوقعت فيك فقمت إلى المغول فوضعته في بطنها فاتكأت عليها حتى قتلتها. فقال النبي «لا أشهدوا أن دمها هدر». ولم تذكر الروایة اسمها.

روایة مصادر التاريخ تفيد أن المرأة هي عصماء بنت مروان وأنها كانت يهودية ولم تكن جارية بل زوجة رجل من بنى خطمة كانت تحرض على الاسلام وتهجو النبي بالشعر. فنذر صحابي يدعى عمير بن عدي الخطمي - من نفس عشيرة زوجها - أن يفتالها إذا رجع النبي سالماً من معركة بدر. فلما رجع جاءها ليلاً فدخل عليها وهي بين أولادها وكان أحدهم على صدرها ترضعه، وكان عمير أعمى، فلتمسها فوجد الرضيع فتحاه عنها ووضع سيفه في صدرها حتى أنفذه من ظهرها. وعاد من الصبح وصلى مع النبي. ولما انتهت الصلاة نظر إليه النبي وقال: أقتلت ابنة مروان؟ قال: نعم يا رسول الله فقال: نصرت الله ورسوله يا عمير فقال: على شيء من شأنها يا رسول

الله؟ فقال: لا ينفع فيها عنزان. وقال لأصحابه: إذا أحببتم أن تتظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب فانظروا إلى عمير بن عدي.

ويصعب الجزم بأي الروايتين أصح. ولو أنها تشتراك في كون القاتل أعمى وفي أن المبادرة إلى الاغتيال جاءت منه ولم تكن أمراً من محمد، وأنه أقرها بعد أن تمت. وربما استنطينا من قوله في الرواية الثانية: أقتلت ابنة مروان؟ أن هناك أمراً ما، مالم يكن هذا القول إضافة من الرواية للتدليل على معرفة النبي بالغيب. ويمكن ترجيح وجود أمر إذا أخذنا بما أوردته الرواية الثانية من كون القاتل من عشيرة زوجها لأن فيه تفاديًّا لمشكلات التأثر. وفي الروايتين إشكالات عديدة الحل إذ يمكننا الارتكاب في صحة الثانية من الوصف المبسط للعملية الذي يبدو منه كأن المرأة كانت تمثلاً تجلس أمام الأعمى في صمت وهو يتقطع المغول ويزيح رضيعها من على صدرها ثم يفرز المغول فيها ويتكئ عليها حتى تموت لكننا نجد هذا الأسلوب في السرد شائعاً في معظم روايات مصادر الحديث والكثير من روايات مصادر التاريخ العام. وهو ابتسار يكرس طبيعة النقل الشفوي للأخبار قبل مرحلة التدوين. ويتعذر علينا كذلك أن نعرف الصفة الحقيقة للمرأة، وهل كانت زوجة أم جارية؟ وهل هي يهودية؟ وما هو رد فعل زوجها إذا كان القاتل غيره؟ وماذا يدل عليه كون القاتل أعمى في الروايتين؟ يضاف إلى ذلك تعارض هذا الفعل مع التشديد في النهي عن قتل النساء. وقد رأينا كيف كادت خطة اغتيال ابن أبي الحقيق تفشل بسبب زوجته لأن المكلفين بذلك تحاشوا المساس بها التزاماً بوصية نبيهم. إننا مضطرون أمام هذه الإشكالات إلى التوقف بشأن الروايتين وعدم الجزم إن كان مثل هذا الحدث قد وقع فعلًا، ولو أن ورود الروايتين في مصادر متعددة، مختلفة الاختصاصات -

الحديث، سيرة، تاريخ عام، تراجم، وأموال - يمنع من التشكيك الاعتراضي فيهما مع بقاء التفاصيل مجهولة فيما يتعلق بهوية المرأة ودورها في الخصم إذا كان لنا أن نقبل المضمون الأولي للروایتين.

أبو عَفَكَ :

يهودي من بنى عمرو بن عوف، كان يحرض على محمد شأنه شأن غيره من كبراء اليهود في يشرب، ولجاً في ذلك إلى الشعر. وتقول الرواية إن صحابياً يدعى سالم بن عمر الأنصاري عزم على اغتياله وأنه دبر الخطة بنفسه. وقد بقي يترصده حتى جاء الصيف حيث ينام الناس في الأفنية. وفي إحدى الليالي كان أبو عفك ينام في منازل عشيرته فتسليلاً إليه سالم وقتله بالملوّع. وكان قد ناهز المئة والعشرين. وأقر النبي هذه العملية.

وكان اغتياله بين معركة بدر وأحد، وهي المدة التي اغتيل فيها أقرانه اليهود عدا ابن أبي الحقيق الذي اغتيل بعد معركة أحد. توقفت الاغتيالات الموجهة ضد الشخصيات اليهودية بعد فتح خيبر الذي أعقب معركة الخندق، آخر معارك الإسلام ضد أهل مكة. وبفتح خيبر كانت المعارضة اليهودية قد صفت حيث سبقه إجلاء بنى القينقاع والنضير وإبادة بنى قريظة وأصبح الخبريون رعايا محمد بموجب عقد الزمة الذي أعقب اجتياح معلقهم الأخير.

اغتيال زعيم قبيلة :

وقع هذا الحديث بين معركتي بدر وأحد. وقد رواه الطبرى في أحداث السنة العاشرة للهجرة ضمن فصل عدد فيه سرايا النبي، أي الحملات التي كان يوجهها لأهداف موصوفة. يدعى هذا الرجل خالد بن سفيان وهو من هذيل. وكان قد قرر تجميع قوة من عشيرته

وغيرها لمحاجمة يثرب بعد معركة بدر. وقد يكون فعل ذلك بتحريض من قريش. ويبعد أن محمد وقف من طريق استخباراته على جدية هذا القرار. وقد نفذ هذه المهمة صحابي يدعى عبد الله بن أبي سعيد كان ضمن المجموعة التي اغتالت كعب بن الأشرف. وحسب رواية هذا الصحابي نفسه أن النبي دعاه وأبلغه أن خالد بن سفيان يجمع الناس ليغزو المدينة، وأمره أن يذهب إليه ليقتله. وتوجه إليه بعد أن عين النبي أوصافه حتى يستطيع تشخيصه، إذ لم يكن قد رأه من قبل، ووصل قبل الأصيل فرأه يمشي مع نساء كان يبحث لهن عن منزل. ويظهر من الرواية أنه كان بعيداً عن الحي. فسلم عليه فرد عليه السلام ثم سأله من الرجل؟ فقال: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل - يعني محمد - فجاءك لذلك. فرد خالد، أجل أنا في ذلك. فتمشي معه قليلاً يحادثه في هذا الشأن فلما وجد منه غفلة عاجله بضررية من سيفه فأرداه. وعاد إلى نبيه ليخبره بإتمام المهمة فكافأه بعضًا لتكون وسيلة تعرف بينهما يوم القيمة... وباغتيال خالد بن سفيان فشلت خطة الهجوم.

يلاحظ أن اغتيال هذا الزعيم تم بسهولة لأنه كان يتحرك على طريقة البدو، بلا حرس ولا أركان حرب. ولم يتطلب الأمر خطة معقدة. كانت اقتضاهما اغتيال كعب بن الأشرف - التاجر والمحصن في قلعة. ويرجع تأثيره الحاسم في إفشال الهجوم إلى أنه كان قراراً منفرداً ومرتهناً بشخص القتيل، فانتهى بانتهائه. وكان محمد حين قرر اغتياله ملماً بهذه الحقائق جيداً لأنه كان يعتمد على جهاز رصد كفؤ.

اغتيال زعيم قبيلة آخر:

في سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى أن زعيمًا لقبائل قيس يدعى رفاعة بن قيس الجُشمِي كان يجمع قيساً لحرب رسول الله. فوجه

إليه ثلاثة فدائين ذكر منهم عبد الله بن أبي حَدْرَد فكمروا له. ورماه ابن أبي حَدْرَد بسهم فقتله وجاء برأسه إلى النبي. أورد هذا الخبر أيضاً ابن حبيب في «أسماء المغتالين من الأشراف» ويختلف الرواية في اسم المغدور إذ يرد أحياناً باسم قيس بن رفاعة.

ويمكن الشك في قطع رأسه لأنه يفترض وقتاً طويلاً للعملية مع افراد المقتول عن أصحابه، مما يتعارض مع خطة العملية التي اعتمدت على كمين متحرك. كذلك يتعارض حمل الرأس مع حكم شرعى ينهى عنه لأنه من باب المثلة (التمثيل بالجثث) لكن نة حاجة قد تكون دعت إليه لإثبات نجاح العملية. وكما بينت فمؤسس الاسلام لم يتقييد بالأحكام الشرعية إذا تعارضت مع مخططاته. أدى اغتيال زعيم قيس إلى فشل خطة الهجوم على المدينة.

اغتيال عَبْهَلَة - الأسود العنسي:

كان عَبْهَلَة (أو عِيَهَلَة) من زعماء الorda وقد تحرك باليمن في أواخر حياة محمد وسيطر على معظم أنحائها وامتد نفوذه إلى أجزاء واسعة من الجزيرة تصل حتى الخليج وكانت حركته من مستوى حركة مسيلمة (الكذاب) في اليمامة من حيث قوتها وخطورتها.

كان من المعتاد أن يعالج محمد مثل هذه التحركات بالمجابهة الحربية لاسيما بعد أن صار هو القوة الأولى في الجزيرة منذ صلح الحديبية. وهو السبب في أننا لانجد عمليات اغتيال في هذه المرحلة. لكن طبيعة تحرك عَبْهَلَة فرضت على محمد مجابهة من طراز خاص تتطرق من خطة اغتيال تأتي في سياق عمل منظم لسحق الحركة بأقل قدر من التكاليف. وكانت هذه الخطة من أعقد مخططات الاغتيال السياسي التي أوعز بها النبي محمد وأشدتها إثارة. وفيما

يلى تفاصيل العملية كما وردت في تواریخ الطبری وابن الأثیر والیعقوبی وفتوح البلدان للبلاذری (تراجع الأبواب التي تحدثت عن حروب الردة في السنة الأولى من خلافة أبو بکر).

كان محمد قد أصدر بنفسه قرار الاغتيال وكلف به جماعة من أهل الیمن واستغرقت العملية وقتاً أطول من أي عملية سابقة بحيث لم تتم إلا والنبي على فراش الموت.

نهض بالهمة إلى جانب الأشخاص الذين كلفهم محمد بأعيانهم، جماعة أخرى مؤثرة من أهل الیمن بينهم القائد العام لجيش عبّلة قيس بن عبد يغوث، الذي قدم تسهيلات بهذا الشأن بعد اختلافه مع نبیه، وقد تصدر التنفيذ زعماء «الأبناء» وهم من الفرس الذين استطعوا الیمن بعد جلاء الأحباش عنها وكان لهم نفوذ سياسي كبير إلى جانب أقیالها. وكان هؤلاء قد ناهضوا حركة عبّلة وخاضوا ضده معركة خاسرة انتهت بقتل قائدهم المسمى «شهر» واستيلاء عبّلة على زوجته «آزاد». وتم التسويق على المستوى الأبعد للخطة مع غير المرتدين من أهل صنعاء على أن يتحركوا إذا سمعوا الأذان من داخل قصر عبّلة.

كانت العقدة الأساسية في الخطة هي كيفية الوصول إلى عبّلة لأنه كان يقيم في قصر محصن ومحاط بحرس شداد لا يفارقهونه ليلاً ولا نهاراً. وقد تولى حل العقدة آزاد، الزوجة المغضوبه التي عزّمت على الثأر لزوجها. فدللت ابن عم لها يدعى فيروز كان من عناصر التنفيذ الرئيسية، على مكان خلفي في القصر يكون وراء الحرس ويؤدي رأساً إلى غرفة نوم عبّلة. وفي ليلة متفق عليها مع آزاد جاء فيروز ومعه فارسيان آخران أحدهما يدعى دادويه والآخر قيس بن جشیش الدیلمی ونقبوا القصر من المكان الذي عينته آزاد. ودخلوا عليه والحرس لا يشعرون لأنه كان يقف خارج الحجرة، وباغتوه بسيوفهم

فأجهزوا عليه. وتقول الرواية إن الحرس سمعوا صوته لحظة ضربه فنادوا على آزاد فقالت لهم: النبي يوحى إليه.. وكان قد عرف عند العرب من الأخبار التي تحدثت عن كيفية نزول الوحي على محمد ما يحدث له أثناءه من الرعدة والغيبوبة. وبقي الحرس في مكانهم خارج الغرفة والمجموعة مع آزاد في داخلها وعبهله قتيل بينهم حتى الصباح. وكانوا قد رتبوا من يرفع الأذان من داخل القصر عند الصبح. وعلى صوت المؤذن تحرك مسلمو صنعاء وهجموا على القصر، وتحرك الحرس من جانبهم فخرجت إليهم المجموعة من غرفة عبهلة وألقت إليهم برأسه مقطوعاً، فارتباوا واختلت صفوفهم، مما سهل على المهاجمين احتلال القصر. وهرب جنود عبهلة إلى خارج صنعاء.

تشتمل عملية اغتيال الأسود العنسي على جملة عناصر ومدلولات تميز بها عن سائر العمليات المماثلة في تاريخ السيرة نستخلصها فيما يلي:

١- إنها كما قلنا في البدء ليست عملية اغتيال فردي بحت، لأنها جاءت كجزء /أساسي/ من خطة انقلابية لنصف الحركة من الداخل. وكما بينا فإن قادة العملية نظموا مسلمي صنعاء للهجوم على القصر عند سماع الأذان، الذي قام هنا دور كلمة السر التي أعلنت ساعة الصفر، مع ماضي رفع الأذان المحمدي من قصر عبهلة من إرباك لأتباعه.

٢- إن اغتيال عبهلة قد حسم الوضع لصالح محمد. ولكن هذا لم يتم إلا بالارتباط مع المخطط الانقلابي في جملته. وقد أدى الاغتيال بدوره إلى نجاح الانقلاب بسرعة وبأقل كلفة - مما أغنى عن حروب طويلة كانت ستتكلف ماكلفه القضاء على حركة مسليمة من ثمن باهظ، لاسيما وأن عبهلة أثبت أنه يتمتع

بقدرات كبيرة لعلها هي التي أطمعته أن يضع نفسه نداءً لـ محمد، شأن نظيره مسيلمة.

٢- وهنا لابد من التتويه بأن مبادرة كالتي قام بها عبهلة كان يمكن أن تتمرر لو توفر لها مقومان: أحدهما منهاج محدد، مقتربن بايديولوجيا واضحة المعالم، كالذى كان لدى محمد. والثانى لو أنها ظهرت في أوانها. إذ من الواضح أن عبهلة جاء متاخراً، كما هو حال مسيلمة، بعد أن تهيأ لـ محمد أن ينجز ما كانت المرحلة التاريخية في جزيرة العرب وعموم المنطقة تريد أن ينجز على يد نبي ما.

وفي ظرف كهذا تميل فيه عوامل النصر الموضوعية مع محمد، فإن تحركاً كبيراً كتحرك عبهلة بدا مع تنفيذ ذكي وجريء لخططة اغتيال أشبه بحدث عابر سرعان ماتلاشى على صوت المؤذن. ويؤدي الاغتيال هنا، ضمن ظروفه المادية وما ارتبط به من مخطط شامل، إلى نتائج بعيدة لا يؤديها الاغتيال الفردي.

٤- قامت بشوط كبير في إنجاح عملية الاغتيال زوجة عبهلة المقصوبة آزاد. والمسؤولية هنا تقع على عبهلة نفسه لأنه خاطر بالزواج من امرأة قتل زوجها. ولابد أن جمال آزاد الفتاة الفارسية، قد أنساه مرتicsات مثل هذا التصرف. إن آزاد هي التي جعلت تنفيذ الخطة ممكناً، ولو لاتها لكان شبه مستحيلة، مع الوضع الحصين الذي رتبه عبهلة لنفسه، ولكن على خليفة محمد أن يجهز جيشاً كالذى جهزه لحرب مسيلمة للقضاء على هذه الحركة.

من المفيد أن نذكر هنا أن حالة آزاد قد سبقتها حالة مماثلة لكنها لم تؤد إلى النتيجة نفسها. فقد سبق لـ محمد أن أقدم على نفس المخاطرة حين تزوج من صفية بنت حُيَّى بن أخطب أحد زعماء خيبر.

وكانت صفية متزوجة من زعيم يهودي من بني النضير هو كنانة بن الريبع، الذي التجأ إلى خيبر بعد إجلاء عشيرته عن يثرب. وقد قتل أبوها وزوجها في معركة فتح خيبر التي قادها علي بن أبي طالب وأشرف عليها محمد بن نفسه. وأسرت صفية فتزوجها محمد. وتنقل مصادر السيرة عن صفية أنها كانت تكره محمد أشد الكره، وهو أمر طبيعي، لكن المصادر تضيف أنها قالت إن الله أدخل حبه في قلبها بعد ذلك. ومن المرجح أنها لم تكن صادقة في هذا القول. ويخبرنا «ابن سيد الناس» في سيرته المشهورة «عيون الأثر» أن تقريراً رفع إلى عمر بن الخطاب بأن أم المؤمنين صفية تحب السبب وتتصل باليهود سراً. فاستجوبتها عمر فأنكرت حبها للسبب واعترفت باتصالها باليهود قائلة بأن لها أقرباء فيهم فهي تبرّهم. وقبل منها عمر وأغلق القضية. ولم يكن له بد من ذلك لأنها من «أمهاه المؤمنين» فلا سبيل له عليها، فضلاً عن أن اليهود لم يعودوا في زمان عمر قوة يؤبه بها حتى يقلّه اتصال صفية بهم.

المهم في هذه الحالة أن صفية كان يمكن أن تلعب مع محمد نفس الدور الذي لعبته آزاد مع عبهلة لو أن محمد كان قد وقع في وضع مماثل. لكن الانتصارات الساحقة التي أحرزها مؤسس الإسلام منطلقاً من قاعدته التأريخية الراسخة قد نجتة من عواقب هذا الزواج الخطر.

خطة فاشلة لاغتيال أبو سفيان :

بعد معركة بدر، التي قتل فيها نفر هام من زعماء قريش، تركزت قيادة أهل مكة في يد أبو سفيان، شيخ الأمويين. وكان أبو سفيان هو منظم وقائد حملتي أحد والخندق ووراء جميع النشاطات المعادية التي قام بها المكيون حتى فتح مكة، وكان من المنتظر أن يدرج في قائمة

الاغتيالات. لكن الأمر لم يكن سهلاً، لسببين أولهما طول المسافة بين مكة ويشرب، وبالتالي عدم ضمان خط انسحاب لمجموعة تكلف بهذه العملية، لاسيما وأن قريش كانت تسيطر على معظم الطريق بين المدينتين. الثاني، وهو الأهم، صعوبة توفير مكمن في مكة تتحرك منه المجموعة، لأنها كانت خالية من المسلمين..

لكن هذه الصعوبات لم تمنع محمد من المحاولة، وقد وردت تفاصيل ذلك في الطبرى وابن الأثير - حادثة سنة ٤ - وتقول الرواية إن النبي اختار لهذا الغرض «فاتكاً متشيطناً» يدعى عمرو بن أمية الضمّري، دخل في الإسلام بعد أن شارك مع قريش في معركتي بدر وأحد. ولعله كان بانتظار إسلام مغامر كهذا ليجرب حظه مع أبو سفيان. وقد بعث معه رجالاً من الأنصار. وخرج الرجالان إلى مكة فدخلاه في الليل، وهو الوقت الذي تمت فيه المهام الأخرى. وكان أهل مكة يرشون أقفيتهم في المساء ويجلسون فيها للسمر. وفي طريقهما إلى منزل أبو سفيان، مر عمرو وصاحبـه بجماعة جالسين في فناء. فأبصراً عمرو، وكان معروفاً لديهم لشهرته، فصرخوا: هذا عمرو بن أمية، فاحتاج أهل مكة وأدركوا أنه لم يأت إليهم إلا لغرض شرير. وكان عمرو يعرف دروب البلد فاستطاع الإفلات مع صاحبه في جنح الظلام. وعاد إلى المدينة وقد سلم أبو سفيان. ولم تكرر المحاولة. ولاشك في أن محمد كان مدركاً لصعوبتها وهو عندما اختار فاتكاً كعمرو بن أمية الضمّري قد فعل غاية ما في الإمكان، ولم يكن ميسوراً لغير هذا الرجل أن يوفق فيما فشل هو فيه. ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة أن شخصية عمرو بن أمية الضمّري دخلت في الحكايات الشعبية التي تناولت بعض أحداث الفتوحات. وقد أخذت في هذه الحكايات نفس منحاتها التاريخي. ولو أن عمرو في الحكايات الشعبية، خلافاً له في مصادر التاريخ، لا يمكن أن يفشل في مهمة!

تنتهي إلى هنا قصة الاغتيالات في العهد النبوى. وسوف نتناول
في الفصل الثاني قصتها في خلافة الراشدين.. وقبل أن نترك هذا
الفصل يلزمنا إيراد بعض الملاحظات الضرورية:

- ١- إن محمد مارس هذا التكتيك كما قلنا في تعارض مع الحكم الشرعي الذي ثبته بنفسه. وهو بذلك يكرس تصوره الخاص للدائرة التي يمكن لها الحكم أن يتحقق فيها - حيث نجده يمارس الاغتيال في دائرة الصراع السياسي المسلح ويقدر ملموس من الذرائعية.
- ٢- إن الاغتيالات التي نفذت في عهد النبوة محدودة عددياً ومحصورة زمنياً.. وضمن هذه الحدود أعطى تكتيك الاغتيال نتائج ذات مفعول بالنسبة لسيرورة الثورة المحمدية دون أن ينعكس - أو - يتحول - إلى نزعة إرهابية. وقد مر بنا أن محمد استخدم هذا التكتيك حين كان ضعيفاً، ولا يستثنى من ذلك إلا اغتيال عبهرة الذي كان جزءاً من مخطط انقلابي.
- ٣- إن الأطراف التي وجهت ضدها الاغتيالات هي أطراف معسكر العدو الذي كان يضم المشركين واليهود. ويرتبط اغتيال الشخصيات اليهودية الخمس أو الأربع بالأدوار الخطيرة التي لعبتها الجماعات اليهودية في يثرب ضد محمد وهو في أحراج أوضاعه. وقد أعطته الاغتيالات ورقة راجحة رجحت كفته عليهم وحدّت نشاطهم المناوي. وهو لم يلجاً إلى هذه الوسيلة إلا بعد أن استفاد وسائل التحالف معهم، أو على الأقل منهم من التحالف مع قريش صدره.

وكما بينت، فقد توفرت الاغتيالات ضد اليهود بعد تصفية المعاشرة اليهودية. وقد عاش اليهود في المدينة بعد ذلك من خلال عقد الذمة كرعايا لمحمد. وتحتوي مصادر الحديث والفقه والتفسير على وقائع كثيرة، عولجت كسوابق فقهية، كان

أشخاصها من يهود المدينة، منها رواية تقول إن النبي كان إذا وزع الخمس يقول: «ابدوا بجارنا اليهودي». وهي من الأخبار التي يستدل منها على جواز التصدق على غير المسلمين. وثمة قصة ظريفة عن حادث سرقة اتهم بها يهودي ثم برئ. وفيها دلالة هامة على كيفية تعامل الإسلام الأول مع غير المسلمين. وقد اقترن بها مجموعة من الآيات تميزت بنبرة بلاغية عالية ولغة انتقادية لاذعة - تراجع الآيات ١٠٥ - ١١٢ من سورة النساء في مصادر التفسير.

٤- في محادثه مع فقيه شيعي قال لي إن استخدام وصف الاغتيالات للعمليات التي جرت في العهد النبوى خطأ. وأورد على ذلك أن مقتل الأشخاص المذكورين جرى بناء على أمر شرعى بتفيذ عملية إعدام. وقد أوردت عليه ماأنا متمسك به وهو أن محمد لم يكن حين جرت هذه العمليات، عدا عملية عبهلة، قد استكمل بناء دولة محكومة بقوانين يقف هو على رأسها. فقد كانت سلطته إلى ما بعد الخندق لاتزال متداخلة مع سلطة التقليد القبلى ولم تصل بعد إلى حد تمكينه من إصدار أوامر كهذه وتتفيد لها بواسطة أجهزة الدولة. يضاف إليه أن بعض المطلوبين كانوا خارج مدى سلطته ومحصنين في موقع عسكرية، فلكي تم تصفيتهم كان لابد من إجراء عسكري يتولاه فدائيون وليس جلادون.

إن ماجرى بالفعل هو عمليات اغتيال وليس إجراءات تنفيذ حكم بالإعدام. وقد تمت على أساس عنصر المبالغة المعروف في حروب العصابات، وانطوت وبالتالي على مخاطرة لا يتضمنها تنفيذ حكم عادى بالإعدام.



الفصل الثاني

في خلافة الراشدية

وافقت في خلافة الراشدين أربعة حوادث اغتيال طالت خليفتين وصحابيًّاً كبيراً وقائداً شيعياً. وقد جاءت هذه الحوادث في مجري الصراع السياسي الذي انفجر بين المسلمين لحظة وفاة النبي، واستمر متفاقماً حتى تأوج بالحرب الأهلية التي بدأت بالانتهاز المسلح ضد عثمان ثم توالت في خلافة علي لتنتهي بانهيار دولة المدينة - حكومة الخلفاء الراشدين وتأسيس الامبراطورية الأموية.

نفذت ثلاثة من الاغتيالات بأيدي إسلامية وواحدة بيد أجنبية. وجرت ثلاثة منها في العلن كعملية اغتيال مكشوفة، وواحدة منها سراً. لكن إحدى العمليات، هي التي طالت الخليفة الثاني، اشتغلت على احتمالات عنصر سري يكمن خلف التنفيذ المكشوف للاغتيال.

اغتيال سعد بن عبادة :

هو زعيم الخزرج وأحد النقباء في بيعة العقبة التي مهدت لهجرة محمد إلى يثرب. عرف في الجاهلية بسمه أخلاقه وتعدد كفاءاته

فلقب بالكامل. وينقل ابن عساكر^(١) عن الواقدي أن النبي قال بسببه كلمته المشهورة: «خيار الناس في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا في الدين». وكان هو قائد الأنصار في حروب الاسلام على عهد النبي وسلك حينذاك سلوك رجل متعطف عن الفنائمة. كما كان يتولى حماية المدينة أثناء الحروب التي كان النبي يقودها بنفسه.

وكان سعد بن عبدة يتمسك بزعامة الأنصار ويعارض قريش. وقد أخرج البخاري^(٢) أنه هتف يوم فتح مكة وفي يده راية الأنصار بسقوط الكعبة - كرمز لسيادة قريش- فشكاه أبو سفيان للنبي فقال: كذب سعد هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة. ثم أوعز بنزع الراية منه وتسليمها إلى ولده قيس في رواية أو إلى علي بن أبي طالب في رواية أخرى.

من هذا الموقع رشح سعد نفسه للخلافة يوم السقيفة. لكنه لم يحصل على إجماع الأوس، خصوم الخرج التقليديين، مما رجع عليه كفة أبو بكر، الذي أيدته قريش ومعظم الأوس.

على أن سعد لم يقر بالهزيمة، وأصر على عدم الإقرار باستخلاف أبو بكر. وبسبب ذلك اختار العزلة فلم يشارك في نشاطات الخلافة في الداخل ولا في الفتوحات. وكان لا يحضر حتى الصلاة في المسجد وإنما يصلى في بيته. ويبدو أنه لم يتحين الفرص لغادرية المدينة، فلما فتحت بلاد الشام هاجر إليها وأقام في حوران. لكنه لم يعش طويلاً. فقد مات في ظروف غامضة سنة ١٤ للهجرة. وقد وردت في موته أخبار تستعرضها فيما يلي:

- رواية ابن عساكر عن النضر بن شميل وهي موجزة تذكر بأنه

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير . بيروت ١٩٧٩ ج ٦٠ في ترجمة سعد بن عبدة .

(٢) الصحيح ج ٥ ص ١٤٧ باب غزوة الفتح

بال قائماً فمات، فسمع قائل يقول:^(٣)

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

ورميئناه بسهمين فلم نخطِّ فؤاده

- ثلاث روايات أوردها صاحب العقد الفريد^(٤) إحداها عن هشام الكلبي وتفيد أن عمر بن الخطاب بعث رجلاً إلى الشام فقال له ادعه إلى البيعة، واحمل له بكل ماقدرته عليه فإن أبي فاستعن الله عليه. فقدم الرجل إلى الشام فلقيه بحوران في حائط (بستان) فدعاه إلى البيعة فقال له: لا أبايع قريشاً أبداً. قال: فإني أقاتلتك قال: وإن قاتلتني. قال: أفحارج أنت مما دخلت فيه الأمة؟ قال: أما من البيعة فأنا خارج. فرمى بهم فقتله.

الثانية عن ميمون بن مهران، وتفيد أن سعد بن عبادة رمي في حمام بالشام فقتل، ولا تزيد عليه شيئاً.

الثالثة عن ابن سيرين وفيها أن سعد بن عبادة رمي بسهم فمات فبكـه الجن فقالـت:

وقتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

ورميئناه بسهمين فلم نخطِّ فؤاده

- رواية في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد^(٥) تقول ان سعد بن عبادة خرج إلى حوران فمات بها. واستطرد: فقيل قتله الجن لأنه بال قائماً في الصحراء ليلاً. ثم أورد البيتين المنسوبين إلى الجن في نص مطابق لنص ابن عساكر. لكن ابن أبي الحديد يعود فينقل رواية تقول ان أمير الشام يومئذ أكلن له من رمـاه ليلاً وهو خارج إلى الصحراء بـسـهمـين فـقتـله

(٣) تهذيب تاريخ دمشق / ٦ / ٩٢

(٤) طـ القاهرة ١٩٦٢ جـ ٤ / ٢٦٠ كتاب العسـجـدةـ الثانيةـ .

. ٥٤٠ / ٢ (٥)

لخروجه عن طاعة الإمام، أي الخليفة. وأردف هذه الرواية بأبيات قال إنها لبعض المؤخرين تضمنت إشارات صريحة عن ملابسات مقتل ابن عبادة سنرويها للقراء بعد قليل.

تفق هذه الروايات في جملتها على أن سعد بن عبدة مات ميتة غامضة. ويمكننا أن نستبعد منها الرواية التي تتقول إنه قتل سعد بن عبدة مباشرة بأمر عمر بن الخطاب، لأن قتل زعيم الخزرج وقائد الأنصار وأحد نقباء بيعة العقبة على المكشوف تهور لا يقدم عليه سياسي محنك كعمر بن الخطاب. ولعله كان سيثير فتنـة تعـيد إلى ذاكرة الخليفة أحداث الردة القريبة. ولا ينـفـر بالـتـالـي من قـبـولـ الروـاـيـاتـ التيـ تـحـدـثـ عنـ الـاغـتـيـالـ.ـ وـمـاـ يـلـفـتـ النـظـرـ هـنـاـ دـوـرـ الـجـنـ فـيـ الـعـمـلـيـةـ وـتـقـسـيـرـهـ بـأـنـ سـعـدـ بـالـقـائـمـاـ.ـ وـالـتـبـولـ قـيـاماـ مـكـرـوـهـ فـيـ الشـرـيعـةـ،ـ وـهـوـ مـكـرـوـهـ طـبـعاـ لـأـسـبـابـ تـعـلـقـ بـالـنـظـافـةـ،ـ لـكـنـ اـرـتكـابـهـ كـمـحـظـورـ دـينـيـ قـدـ يـكـونـ سـبـبـاـ فـيـ التـعـرـضـ لـعـقـوبـةـ خـفـيـةـ،ـ مـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـكـونـ قـدـ جـرـىـ تـوـظـيفـهـ هـنـاـ لـإـعـطـاءـ سـبـبـ غـيـبـيـ لـلـمـوـتـ.ـ وـالـوـعـيـ الدـيـنـيـ لـاـيـسـتـكـثـرـ مـثـلـ هـذـاـ إـسـرـافـ فـيـ الـعـقـوبـةـ،ـ مـتـضـمـنـ فـيـ قـتـلـ قـائـدـ إـسـلـامـيـ كـبـيرـ سـلـفـ لـهـ أـيـادـيـ جـلـيلـةـ عـلـىـ إـسـلـامـ بـسـبـبـ مـخـالـفـةـ بـسـيـطـةـ.ـ أـمـاـ قـتـلـهـ عـلـىـ يـدـ الـجـنـ فـيـهـمـ مـنـهـ أـنـ هـؤـلـاءـ الـجـنـ كـانـواـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ.ـ وـالـجـنـ كـالـإـنـسـ فـيـهـمـ الـمـسـلـمـ وـفـيـهـمـ الـكـافـرـ.ـ وـأـنـهـ تـولـواـ قـتـلـ الصـحـابـيـ غـيـرـةـ عـلـىـ الـدـيـنـ لـأـنـهـ خـالـفـ الشـرـ بـتـبـولـهـ قـائـمـاـ.ـ هـذـاـ مـعـ مـاـ فـيـ الـقـوـلـ بـأـنـ سـعـدـ بـالـقـائـمـاـ فـقـتـلـهـ الـجـنـ،ـ أـوـ مـاتـ مـيـتـةـ خـفـيـةـ مـنـ تـصـيـغـرـ لـشـائـهـ فـيـ عـيـونـ الـمـؤـمـنـينـ..

نـأـيـ إـلـىـ الـأـبـيـاتـ الـتـيـ أـوـرـدـهـاـ اـبـنـ أـبـيـ الـحـدـيدـ لـبـعـضـ

المـؤـخـرـينـ وـهـذـاـ نـصـهـ:

إنـ قـائـلـ هـذـاـ الشـعـرـ لـمـ يـسـتـوـعـبـ كـيـفـ يـصـحـ لـلـجـنـ أـنـ قـتـلـ رـجـلاـ
كـسـعـدـ بـنـ عـبـادـةـ لـجـرـدـ أـنـهـ بـالـقـائـمـاـ،ـ وـهـوـ بـالـتـالـيـ يـضـعـ الـحـادـثـ عـلـىـ
مـلـاـكـ الـغـدـرـ.ـ الـاغـتـيـالـ،ـ مـصـرـحاـ بـالـسـبـبـ وـهـوـمـوـقـفـ سـعـدـ مـنـ خـلـافـةـ

قريش متمثلاً في رفضه مبايعة أبو بكر. وقد عزز الشاعر استنتاجه بالكلام عن شدة إغراء السلطة، الذي يضعف أمامه حتى الزهاد القادرين على ترويض أنفسهم للصبر عن متع الحياة. ومن الواضح أنه يلمح بذلك إلى عمر وأبو بكر اللذين عرفا بالزهد وبساطة العيش قبل الخلافة وفي أثنائها.

هذه الأبيات تعطي تفسيراً يمكن أن يكون سليماً لمجمل ماحدث بشأن سعد بن عيادة. وسائلها قريب العهد بالحادث. وهي من جهتها شاهد على وعي سياسي قادر على أن يخرق حجاب العقائد الشعبية ليطل منها على أسرار السياسة.

ونحن نميل إلى القبول بهذا التفسير ونعتقد أن اغتيال سعد تم بتدبير عمر بن الخطاب وأن الباущ عليه هو إصراره على عدم الإقرار بخلافة قريش وإباوه أن يبأيع للخلفيتين حتى بعد أن بايع الهاشميون بصدارة علي بن أبي طالب، صاحب الحق الأكثر رجحانًا من سعد في خلافة محمد.. ومع أن عمر لم يكن ليجهل أن زعيم الخزرغ غير قادر على تغيير مجرى الخلافة فمن المحتمل أنه كان يخشى من تأثيره على الأنصار، وربما على غيرهم من المسلمين. وهناك مايسير إلى أن نواياه المعادية للخلفيتين قد تجاوزت الأنصار فعلاً. وقد اتضحت هذه الحقيقة في وقت لاحق حين انضم ولده قيس، الذي ورث الكثير من سجايا والده، إلى علي بن أبي طالب وكان من أشد أنصاره حماساً ضد الأمويين إلى حد أنه امتنع عن مبايعة معاوية بن أبي سفيان بعد انتزاعه الخلافة من الحسن بن علي حتى بعد أن بايعه الحسن نفسه...

إن مصرع سعد بن عبادة هو أول حدث من نوعه في تاريخ الإسلام يقتل فيه مسلم على يد رفاقه أنفسهم، وهذا الحدث يجري من جهته على سنن شائعة في الحركات السياسية المسلحة بعد

انتصارها. فهذه الحركات قلما تخلو بعد وصولها إلى السلطة من مصائر مأساوية يذهب ضحيتها بعض قادتها الذين يشاء سوء حظهم أن لا يتمتعوا بثمار انتصارهم.

اغتيال عمر بن الخطاب:

اغتيل عمر بن الخطاب على يد فيروز الديلمي المكنى أبو لؤلؤة، وكان عبداً للمغيرة بن شعبة الثقي. وقد جرى اغتياله وهو يؤدي صلاة الصبح. وكانت العملية سهلة لم تتطلب خطة معقدة كالتى اضطر إليها المسلمون لتنفيذ الاغتيالات التي أمر بها النبي. وسبب هذا أن عمر كان بلا حرس لأنّه، شأن صاحبيه أبو بكر وعلي، لم يكن يرتاح لمظاهر السلطة ويعتبرها من قبيل أعمال كسرى وقيصر - طفأة ذلك الزمان في عيون العرب. وقد دخل أبو لؤلؤة مع جمهور المسلمين إلى المسجد رغم أنه لم يكن مسلماً، دون أن يعترض عليه أحد. وكان يخفى خنجرأ له رأسان فلما تقدم عمر صفووف المسلمين اتجه إليه أبو لؤلؤة وطعنه ست طعنات، أو ثلاثة بحسب اختلاف الروايات، كانت إحداها تحت سرتة وهي التي قتلتة. ويستدل من ذلك أنه لم يطعنه من الخلف وإنما دغره من الأمام، مما يدل في حد ذاته على سهولة العملية، الناتجة كما قلنا من انعدام مظاهر السلطة في أيام عمر. من هو قاتل عمر؟ وأية حالة طمّنها رحيله؟

المعروف أنَّ الباعث على اغتيال عمر كان هو الانتقام لهزيمة الفرس وانهيار امبراطوريتهم. وهو ما حرك أبو لؤلؤة للقيام بهذه المغامرة. ويدذكر عن هذا الفدائي المجنوسي أنه كان يقول: أكل عمر كبدى. ولعله كان يقولها حقاً، إذا لم نشأ أن نتجاهل رد الفعل الطبيعي الناتج عن الأحساس القومية.

ومما أثار حفيظة أبو لؤلؤة ومن على شاكلته من الفرس أكثر، هو أنَّ الفتوحات الإسلامية لم تخرج، رغم نتائجها التاريخية الهائلة، عن ناموس الفتوحات والحروب القديمة القائمة على جمع الفنائيم واسترقاء الأسرى بما في ذلك نساء المقاتلين وأطفالهم. ولقد قيل أنَّ أبو لؤلؤة كان إذا رأى سبايا بني قومه في المدينة يمسح على رؤوس الأطفال وي بكى.

لكن هل كان اغتيال عمر مجرد رد فعل فارسي؟ لقد أشبع الغاضبون الفرس نزوة الشَّار بمقتل الخليفة دون أن ينتهي بهم ذلك إلى استرجاع أمبراطوريتهم. بل وقد حدث هذا في وقت أخذ فيه الفرس يدخلون في الإسلام أفواجاً ويتحولون هم أنفسهم إلى فاتحين ينشرون الإسلام فيما وراء بلادهم التي أصبحت بدورها من مراكز الفتوحات الإسلامية في المشرق^(*). وفي هذا الميزان لا يعني مقتل عمر شيئاً يتعدى رد الفعل الانتقامي العابر.. لكننا نلمع من جانب آخر رغبات مستجدة طمنها رحيل عمر ويمكن أن يكون لها صلة بمخططه تصفيته. وقد تتبه كتاب معاصرون لهذه المسألة وأثاروا حولها شكوكاً جدية. وهي الحق أنَّ مصادر التاريخ الإسلامي لم تترك هذا الحدث يمر دون أن تضع بنفسها علامات استفهام هي مايفتح عيوننا على ملابساته. وستتابع فيما يلي بعض المؤشرات الهدادية في هذا الشأن.

كانت قريش هي الارستقراطية الأغنى والأكثر نفوذاً في بلاد العرب. ومع أنها حاربت الإسلام في البداية فسرعان ما انضمت تحت لوائه لكي تتتصدر العرب المسلمين كما تصدرت العرب الجاهليين. وبالطبع فقد أصبحت قريش بعد الإسلام أغنى وأقوى منها في

(*) أصبح ابن أخي قاتل عمر المعنى عبد الله بن ذكوان والمكى أبو الزناد فقيهاً ومحدثاً مرموقاً وكان سفيان الثوري يسميه أمير المؤمنين في الحديث . وقد ولاه عمر بن عبد العزيز بيت مال الكوفة . انظر ابن عساكر ٢٧

الجاهلية كما اتسعت قاعدتها العددية، كطبقة اجتماعية بالعناصر الاستقراطية الجديدة التي تكونت مع الفتوحات وتدمجت معها في موقع اجتماعي واحد دون أن تكون بالضرورة من قريش.

وقد ساهم عمر بنفسه في نمو هذه الفتة، وذلك عن طريق سياساته في العطاء (التخصيصات المالية) وكان عمر بعد أن تدفقت عليه أموال الفتح قد اتبع قاعدة في العطاء تقضي بتفضيل المسلمين الأولين - ومعظمهم من قريش - وأقرباء النبي من قريش أيضاً من حيث مقادير الأموال التي تدفع لهم. وقد تكبدت لديهم بسبب ذلك مبالغ طائلة أضيفت لدى أكثرهم إلى ثروته السابقة من التجارة . ورغم أن هذا المبدأ حرم من العطاء عدداً من زعماء قريش الذين أسلموا متأخرين - بعد فتح مكة، فإن نفوذ هؤلاء استمر في أبنائهم وأقاربهم الذين سبقوهم إلى الإسلام فشملهم التفضيل . وقد استند عمر بهذه السياسة إلى منطق «حزبي» عبر عنه بقوله^(٦): «لأجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه» صادراً في ذلك عن نهج شبه سائد في الحركات السياسية التي تصل إلى السلطة فيستأثر قادتها وكوادرها بامتيازات مخصوصة.

غير أن عمر لم يكن على وفاق تام مع هذه الفتة. ورغم أنه كان من قريش ومتمسكاً بزعامتها للعرب فقد صدر منه ما ينم عن عدم انسجام مع النزعات المعروفة لهذه القبيلة الاستقراطية . ويورد الطبرى كلاماً له يحذر فيه من فتیان قريش وذوي الأرومة النبيلة فيها يدل على معرفة جيدة بشخصية التاجر الذي يجمع بين احتياز الثروة والجاه^(٧). ولهذا الاتجاه لدى عمر أصول اجتماعية وقبيلية، فعشيرة عمر (بني عدي) لم تكن ذات وجاهة أو ثروة قبل الإسلام. ويقول أبو

(٦) المراجـ ، أبو يوسف . ط . السـنية - القاهرة ١٣٥٢ هـ ص ٤٢ فصل كيف فرض عمر لأصحاب رسول الله .

(٧) التاريخ ط - الاستقامة ، القاهرة ١٩٣٩ ج ٢/٤٢٧ باب مقتل عثمان . نص الكلام : «احذروا فتي قريش وابن كريها ، الذي لا ينام إلا على الرضا ، ويفحـ عند الغضـ . وهو يتناول من ثوـة ومن تحـه» .

حيان التوحيد عن عمر نفسه إنه كان يستغل دللاً في السوق^(٨). وهي حرفه غير محترمة كثيراً عند العرب حتى الوقت الحاضر. وما يقال عن عمر أنه كان يسُفِّر، يتوسط، في الخصومات بين قريش فمرجعه ليس إلى مكانته بل إلى كفاءته الشخصية.

ويبدو أن معايير عمر «الحزبية» والدينية لم تمنعه من الوقوع في تناقض مع أولئك الناس الذين فضلهم بالعطاء بتأشير واحد من هذه المعايير. ولدينا روايات تحدثت عن نوايا مستجدة لديه بشأن الأموال تمس علاقته بهذه الفئة على نحو خطير. ونستعرضها فيما يلي:

الأولى في كتاب الخراج لأبو يوسف وفيها يقول عمر^(٩): «لئن عشت إلى هذه الليلة من قابل لألحقن أخرى الناس بأولادهم حتى يكونوا في العطاء سواء» ويفهم من توقيت موعد التعديل أنه قال ذلك في عامه الأخير. وهو ما يؤكده أبو يوسف بقوله بعد أن أورد هذا الكلام إنه توفي قبل ذلك أي قبل أن يحين موعد العطاء التالي. وكان العطاء سنوياً.

الثانية لابن الأثير. وفيها قول عمر^(١٠): «إن رسول الله قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالتزجية. وإنني قدرت، فوالله لأنضعن الفضول مواضعها ولا تبلغن بالتزجية».

«الفضول: الأموال الفاضلة عن الحاجة. التبلغ بالتزجية»

(٨) البصائر والذخائر . دمشق ١٩٦٦ ج ٢ ص ٤١ . وفي «الأمتعة والمؤانسة» يورد أبو حيان كلاماً لعمر بن العاص يقول فيه : «لعن الله زماناً عمنا فيه لابن الخطاب . لقد رأيته وأباه وأنهما لبني شملة ماتواري ارساغهما وأن العاص بن وائل (والد المتكلم) لبني مقطعمات الديباج مزرورة بالذهب . ط بيروت بلا تاريخ ج ٩٥/٢ .

أنظر أيضاً شرح النهج م ١ ص ٨٥ عبارة عمرو فيه : «لعن الله زماناً صرت في عاملاً نعمر . والله لقد رأيت عمر وأباه وعلى كل واحد منهما عباءة قطوانية لا تتجاوز مأبض ركبته وعلى عنقه حزمة طب . والعاص بن وائل في مزررات الديباج » . . وينفي أن يكون هذا النص أقرب إلى الأصل لأن التوحيد يعيد صياغة مروياته بأسلوبه ولا يتقيد بالنص الذي ينقله .

(٩) ص ٤٤ فصل كيف فرض عمر لأصحاب رسول الله . أيضاً طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٢١٧ .

(١٠) الكامل في التاريخ . حوادث سنة ١٥ باب فرض العطاء وعمل الديوان .

كتاب عن عيش الكفاف». ويؤخذ من ظاهر العبارة أن عمر يقصد نفسه بالاعلان عن نيته في التنازل عن أمواله والاحتفاظ منها بما يكفيه لضرورياته.

الثالثة في تاريخ الطبرى وفيها يقول^(١١): «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين». ويفهم من قوله: «لو استقبلت ما استدبرت» إنه صرخ به في عامه الأخير. والأغنياء المقصودون هم الذين استفادوا من التوزيع المتحيز والمستفيدون من عوائد الفتوحات. وكان بينهم تجار المسلمين من قريش وهم فريقين: المسلمين الأول كعثمان بن عفان ومسلمي الفتح. أما فقراء المهاجرين فهم فقراء المدن الذين هاجروا إليها من البوادي والأرياف بموجب نظام الهجرة الذي أشرنا إليه سابقاً.

إن الروايات الثلاثة متكاملة في محتوياتها بشكل يبعث - مع ورودها عن رواة متفرقين لا يصدق عليهم وصف التواطؤ - على تعزيز الثقة بصحتها. وهي تشكل بما تضمنته من نوايا معلنة بشأن الأموال موقفاً جديداً موجهاً ضد الارستقراطية القديمة - الجديدة التي ساهم عمر نفسه في بلوتها وترسيخ موقعها الاقتصادي. ويتمتع بأهمية دالة في هذا الصدد، إجراء سبق لعمر أن اتخذه بحق القرشيين الذين اختصهم بأفضلية العطاء سبب في حينه صراعاً خفياً بينهم وبين الخليفة. ولنترك للطبرى تفسير ذلك ..

- عن الحسن البصري^(١٢): كان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج (من المدينة إلى الأمصار) إلا بإذن وأجل (سفر مؤقت).

(١١) حادث ٢٣ . مقتل عمر - باب شيء من سيرة مما لم يحضر ذكره .

(١٢) نفسه . حادث ٣٦ مقتل عثمان .

- عن الشعبي^(١٣): لم يمت عمر حتى ملته قريش. وقد كان حصرهم في المدينة وقال إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد.

ويضيف الشعبي أن بعضهم كان يستأنسه في الخروج إلى الجهاد فيقول له قد جاهدت مع النبي وهذا يكفيك. وخير لك من الجهاد اليوم أن لاترى الدنيا ولا تراك..

ويقول الشعبي في نفس الرواية إن عثمان رفع الحجر عن قريش فتنقلوا في البلاد فكان أحب إليهم من عمر. وهو ماتؤكده الرواية التالية:

- عن محمد وطلحة^(١٤) : لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار وانقطع إليهم الناس - يقصد تجمعوا حولهم وصار لكل واحد حاشية وأتباع.

نقرأ في هذه الروايات مقدمات انشقاق سياسي بين عمر والارستقراطية الجديدة تسبق تصريحاته الثلاثة، منشأه الحجر عليها في المدينة. وهو إجراء يحد من اتساع هذه الفئة التي كانت تطمح إلى إيجاد موقع لها في الأمصار مدفوعة بحافز طبيعي نحو تركيز وتوسيع مصالحها الاقتصادية ونفوذها الاجتماعي. ومن هنا كان تبرتها من عمر، وتوقعها وبالتالي إلى الخلاص منه (مامات عمر حتى ملته قريش). على أن الخلاف لم يبلغ، حتى السنة الأخيرة من حياة الخليفة، من التناحر ما يكفي لتجiger صراع دموي. وينبغي لذلك أن لا تتوقع تحركاً معادياً يستهدف التضحية بإمام عظيم، حتى في

(١٣) نفسه . حوادث ٢٢ فصل مقتل عمر في آخر الحديث عن الشورى . يزيد عمر انهم سوف يتسلطون على الناس بوصفهم عشيرة النبي وصحابته الأقربين . ويبدو عمر من هنا مدركاً للدور السلبي الذي تمارسه أمثل هذه الفئات في الدول الناشطة حين تجمع بيدها السلطة والثروة . انظر أيضاً ابن عساكر ٣٦٦/٥ .

(١٤) نفسه . حوادث ٢٦ . فصل مقتل عثمان .

عيون الارستقراطية التي ملت منه، من أجل أن تتحرر وتنطلق. ولو أنها كانت تود، بحسب مايسعنا استخلاصه من إفادات رجال الطبرى، لو أن هذا الإمام مات في أجله المسمى ليذهب إلى ربه دون أن تتحمل شيئاً من وزره. وللمؤمنين من أتباع الأديان السماوية نهج معروف في التوفيق بين الدين والدنيا يرتبط بحرصهم على الفوز بسعادة الدارين، نعيم الدنيا والآخرة معاً.

لكن انتقال عمر إلى موقع آخر، ذو طبيعة صدامية، كان من شأنه أن يثير ردود فعل من درجة أشد قد ترتقي بالرغبة إلى مرتبة الإرادة.

هنا يخبرنا الطبرى أن عبید الله بن عمر قال مهدداً بعد مقتل والده^(١٥):

والله لأقتلن رجالاً من شرك (شارك) في دم أبي.

وينقل الطبرى عن أحد رواة الخبر وهو عبد العزيز بن سياه تعقيباً عليه يقول: إنه - أي عبید الله - يعرض بالمهاجرين والأنصار. وكان عبید الله قد قتل الهرمزان ورجلًا مسيحيًا اسمه جفينه اتهمهما بالتواطؤ على اغتيال والده ثم قتل ابنة أبو لؤلؤة وبقي شاهراً سيفه. ويقول الطبرى إن صهيب الرومي أرسل إليه حينذاك عمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص. وقد صاوله سعد حتى انتزع السيف منه وحجزه في داره. وتبعاً للرواية فإنه كان يردد هذا التهديد في تلك الساعة، مما يعني أنه كان ينوي بعد أن فرغ من مقتل الثلاثة أن يتوجه إلى أولئك الرجال ليصفي حسابه معهم. ولذلك لم يلق السيف إلا بعد المبارزة مع عسكريين كبيرين ماكان بمقدوره أن يتغلب عليهم.

(١٥) نفسه ، حوادث ٣٦ . فصل مقتل عثمان .

وببدو أن عمر لم يكن بعيداً عن التفكير في احتمال كهذا، لأنه كان يسأل الداخلين عليه من الصحابة وهو يحتضر: أعن ملأ منكم كان هذا؟ وهم يقولون: معاذ الله. (عن ملأ: تواطؤ. والملا اصطلاح يمني يشير إلى مجالس ممثلي القبائل التي كانت تشارك في إدارة الدولة في الدول اليمنية الغابرة).

وبوسعنا الافتراض أن الجهة التي كان يهمها التخلص من عمر قد جسدت إرادتها، أو رغبتها على الأقل، من خلال الغضب الفارسي على هادم الامبراطورية الساسانية. ومما له مغزاه أن أبو لؤلؤة كان كما بيّنا عبداً للمغيرة بن شعبه الثقفي، وهو شخصية تأمورية قدّرها كانت له وسائل صميمية مع الاستقرارية الجديدة، وهو الذي سعى لدى عمر للسماح لفلاّمه هذا بالإقامة في المدينة لأن عمر كان قد نهى عن دخول الأعاجم، الذين فتحت بلدانهم، إلى عاصمة الفاتحين المسلمين، كإجراء أمني.

ترد في هذا السياق أخبار غامضة عن كعب الأحبار. وهو يهودي من اليمن أسلم في خلافة أبو بكر وقدم إلى المدينة في خلافة عمر. وتدور شبهات حول إسلام هذا الرجل، الذي يحل في التقسيم الشيعي محل عبد الله بن سبأ في التقسيم السنّي؛ كلاماً لعب دوراً في تأجيج الفتنة بين المسلمين بحسب الاتهامات المقابلة بين الطوائف.

أورد الطبرى^(١٦) في تفصيله لأحداث مقتل عمر أن كعب قال لعمر قبل اغتياله بثلاثة أيام أنه سيموت. ولما سأله الخليفة من أين علم ذلك قال انه مكتوب في التوراة. ويقال ان عمردهش لهذا الكلام فأكّد عليه: الله! إنك لتتجدد ابن الخطاب في التوراة؟ فرد عليه: «اللهم لا. ولكن أجد صفتكم وحيتك». ولما ضرب عمر في اليوم الثالث ودخل عليه كعب أنسد عليه عمر بيتهن يذكر فيهما نبوءة كعب.

(١٦) نفسه حوادث ٢٢ مقتل عمر .

وفي طبقات ابن سعد^(١٧) رواية أخرى تفيد أنّ زوجة عمر، أم كلثوم بنت علي، قالت لزوجها وهي تبكي - وكانت شابة غريبة - إن هذا اليهودي، تقصد كعب الأحبار، يقول إنك على باب من أبواب جهنم. فأرسل إليه وسأله عن ذلك فقال يا أمير المؤمنين لا تجعل علي، والذي نفسي بيده لا ينسلخ (لайнنصرم) ذو الحجة حتى تدخل الجنة. فقال عمر: أي شيء هذا مرة في الجنة ومرة في النار؟ فرد عليه: أنا لنجدك في كتاب الله (التوراة) على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقعوا فيها.

تتحمل هذه الأخبار وجوهاً مختلفة؛ إن تكون صحيحة، وتكون وبالتالي دليلاً على معرفة كعب الأحبار بمخطط اغتيال عمر، وبمعنى ما: ضلوعه فيه. وأنا أستبعد ذلك لاعتبارات، منها أن حوار عمر مع كعب يظهره مؤمناً ساذجاً سريع التصديق، مما لا يختلف مع شخصية قائد سياسي وعسكري كبير يصعب على مشعوذ، أيًّا كان، أن يضحك عليه بهذه الطريقة المفضوحة. وينبغي أيضاً نفي صحة البيتين اللذين يقال ان عمر أنسدهما حين دخل عليه كعب لأنهما من الشعر المتين، الجيد السبك. ولم يكن لعمر من الشاعرية ما يمكنه من نظم مثل هذا الشعر وهو سليم فكيف وهو، يحتضر؟.

أو أنها اختراع أريد به إضفاء القدسية على الخليفة الثاني من حيث النص عليه في التوراة أسوة بالنصل على محمد في الانجيل.

وقد تكون في أصلها شائعات بثت عن عمد بعد مقتل عمر لإعطاء هذا الحديث صفة التدبير الإلهي غير الخاضع لإرادة البشر، وبالتالي لقطع اللغط حوله. إن الكثير من الأخبار التي اعتدنا على اعتبارها مكذوبة واتهام المؤرخين باختلاقها هي في الواقع من هذا النمط. ونحن نعرف من تجاربنا الراهنة أن الأخبار الكاذبة غالباً

(١٧) طبقات ابن سعد / ٢٤٠

ماتشأ حول الحدث السياسي، وبالتزامن معه أحياناً، لدّوافع وأسباب مختلفة.

يهمنا أيضاً أن نشير إلى صلة جفينة، المسيحي الذي مر ذكره، بسعد بن أبي وقاص وكون الأخير هو الذي جاء به إلى المدينة حين عاد إليها معزولاً من ولاية الكوفة بأمر عمر. ولابد أن تبعث على التساؤل هذه الصحبة إلى المدينة بين فاتح العراق وأحد العشرة المبشرين بالجنة وبين رجل نصراني من عرب الحيرة غريب على الحجاز. ومن الجدير بالذكر أن جفينة كان على صلة بالهرمزان وأبو لؤلؤة وهو ماحدا بعبيد الله بن عمر إلى قتلهما معاً. وقد مر بنا أيضاً أن سعد بن أبي وقاص هو الذي انتزع السيف من يد عبيد الله وحجزه في داره . ومن المفيد أن نذكر هنا أن عمر كان على خلاف شديد مع سعد بسبب سلوكه عند ولايته الكوفة، مما حمله على عزله بعد أن أرسل مبعوثاً من قبله إلى الكوفة وأمره بإحراق باب قصر الإمارة الذي يقيم فيه سعد . وكان عمر يمنع الولاة من اتخاذ أبواب لقرائهم حتى لاينجذبوا عن الناس^(١٨).

تجمّع من مجمل مارويناه حتى الآن خيوط مؤامرة خفية قد تكون حيكت من خارج المجموعة الفارسية الصغيرة التي اتهمت بالتواءط مع القاتل. ولعل عبيد الله بن عمر كان مطلعاً، أو على الأقل متّحسساً بملابسات من هذا القبيل حين هدد بقتل آخرين قال إنهم اشتركوا في الجريمة، إذا صح مانقله الطبرى . وقد حال الإسراع بالقبض عليه دون تففيف تهديداته، وبالتالي أدى إلى كتمان أسماء كان يمكن أن تظهر للعلن مع لمعان سيف الولد الموتور..

ولكن لماذا لم يتقوه عبيد الله بذلك هذه الأسماء بعد أن قبض عليه؟ هنا قد نجد أنفسنا أمام سر آخر يتعين علينا كي نستشفه أن

(١٨) الدينوري - الأخبار الطوال من ١٢٥ . ولو رده ابن عساكر عن طبقات ابن سعد رغم الترجمة المنحازة التي اختص بها سعد بن أبي وقاص في تاريخ دمشق الكبير ج ١٠٦/٦ .

نعرف من كان يقصدهم عبيد الله بالتهديد. وهم في حالتنا هذه أحد ثلاثة: قريش، أو أنصار علي بن أبي طالب، أو ورثة وأعوان سعد بن عبادة. وكان هؤلاء الثلاثة قد استقطبوا في جبهتين متخاصمتين ستخوضان حرباًأهلية بعد قليل، تضم الأولى قريش وتضم الثانية الفريقين الآخرين. وقريش هي التي استلمت الخلافة في شخص عثمان وهي التي احتجزت عبيد الله وتحكمت فيه. وبالتالي فلو أنه كان يقصد بتهديده الفريق الآخر فقد كان من مصلحتها أن لا يسكن. لكنه وقد سكت لا بد أن يكون المقصود بالتهديد رجال من قريش. وبالطبع فإن قريش، الحاكمة، تملك القدرة على إسكاته. وثمة عامل هام يفترض أنه أثر على موقف عبيد الله وهو مطالبة علي بن أبي طالب بإعدامه لقتله الهرمزان. وكان علي يصدر في هذه المطالبة عن موقف شرعي بحث. وعلى معروف بعدم مرؤونته في هذا الجانب. وقد لج في مطالبة عثمان بعد استخلافه بإعدام عبيد الله إلى أن حسم عثمان القضية بتخريج قانوني قال فيه إنه، أي عثمان، ولـي الهرمزان لأن الهرمزان لأولي له (يقصد ليس له أقرباء يطالبون بدمه، وفي هذه الحالة يكون الخليفة هو الولي) وأنه وبالتالي قد تنازل عن دمه وقرر العفو عن قاتله. وهكذا وجد عبيد الله نفسه في حماية قريش، والأمويين بالأخص، فكان من الطبيعي أن ينحاز إليهم ويعتبر قضية والده منتهية إلى هذا الحد.

لامجال مع ذلك لأي قدر من الجزم بنتيجة قاطعة. وإن كنت لألم من الضجيج الذي أثاره القدماء والمتأخرن من رواة التاريخ حول هذه «الجريمة الفارسية» دوراً في التمييع والتستر علينا له منذ عشرين سنة مثلاً في تقرير لجنة وارن الأمريكية حول ملابسات اغتيال جون كندي رئيس الولايات المتحدة، الذي دخلت سياسته في تعارض مع الفئات الأكثر تطرفاً في قيادة الامبرالية الأمريكية. ومعروف أن هذا

التقرير لم يفعل رغم لغته القانونية المحكمة أكثر من إلقاء ضوء أسود على الأسماء التي وقفت وراء القاتل الفرد أو زواله. وبقدر ما يبقى الكشف عن قتلة كندي الأصلين شبه متذرع قد يكون بقي كذلك بالنسبة لقتلة الخليفة الثاني للمسلمين ..

على أتنا لنملك حق البت في الحقيقة التالية، وهي أن مقتل عمر قد استجاب لمصالح اجتماعية إن لم تكن هي التي دبرت قتله فإنها كانت المستفيد الأوحد من هذه العملية. وأنه ليبدو لنا الآن دون أن نجد حافزاً إضافياً لمواصلة الطخ على أبو لؤلؤة المجوسي، أن الفاتح العظيم قد ذهب ضحية - محظومة - لتلك المفارقة الكبرى (التي تكررت أيضاً في خلافة علي بن أبي طالب وانتهت به إلى المصير المماثل الذي سనقصه بعد قليل) بين سياسة تقوم على الفتوحات - أي بناء امبراطورية - وتسعى في نفس الوقت لإقامة نظام داخلي في توزيع المنهوبات يقوم على التساوي بل ويسعى لمصادرة أموال الأغنياء (قادة الفتح ومؤسس الإمبراطورية) وتوزيعها على الجنود .. إن من يفكرون في المساواة، وفي أي إطار كانت، لا يستطيع أن يبني امبراطورية ولاشك أيضاً أن من يبني امبراطورية لا يسعه أن يسلك سلوك عمر. لقد خلق عمر بهذه السياسة المزدوجة تناقضها لم يكن ممكناً حلها إلا باختلاف عثمان بن عفان. وهو الخيار الوحيد الذي أمكن معه لتاريخ الإسلام أن يأخذ مساره اللاحق. ولم يكن خنجر أبو لؤلؤة غير الرافعة التي اختارتها المسيرة لإزاحة عقبة ناشرة في مجريها.

اغتيال علي بن أبي طالب:

وصل علي بن أبي طالب إلى الخلافة بعد الحركة المسلحة التي أودت بعثمان. وأغتيل على يد نفس الحركة. والفريق الذي اغتاله هم الخوارج الذين انشقوا عليه في صفين. فاغتيال علي هو نتيجة

لتتقاض في صفوف مجموعة سياسية واحدة أخذ بعدها تناحرياً أدى إلى انفجار صراع دموي بين شقيها. وهذه ظاهرة مطردة في تاريخ الحركات السياسية المسلحة بعد وصولها إلى السلطة نجدها في العصور الحديثة كما كانت في العصور الفارطة.

وقد تسبب اغتيال الخليفة الرابع عن مسلك تدميري لدى الخوارج هو مادفعهم إلى اتخاذ قرارهم بتصفية زعيمهم السابق وخصمه في آن واحد. والخطة معروفة، فقد تداول فريق من الخوارج في أمر الأمة فوجدوا أزمتها تكمن في زعامتها. واتخذوا من ثم قرارهم الذي يقضي بالخلص من هذه الزعامة التي تمثلت حسب تحديدهم في علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص. وعهد بالتنفيذ إلى ثلاثة فدائين أرسل أحدهم إلى الكوفة والثاني إلى دمشق والثالث إلى مصر. وعينت الخطة للتنفيذ يوماً واحداً هو التاسع عشر من رمضان بعد أن حسبت المدة الكافية لوصول الثلاثة إلى مقاصدهم، وساعة واحدة هي ساعة صلاة الفجر.

وفي الوقت الموعود، كان كل من الثلاثة قد توجه إلى هدفه. ويبدو أن الفدائي الذي أرسل إلى معاوية لم يحسن توجيه الضربة، فوقع السيف في إلية معاوية ولم يقتله. أما فدائي عمرو بن العاص فأجاد الضربة وقتله. ثم تبين أنه شخص آخر ناب عنه في الصلاة لمرض ألم به ذلك اليوم. ويفهم من هذا أنه لم يكن يعرف شكل عمرو فلم يميزه عن نائبه. وكان اسم النائب القتيل «خارج» فقال الفدائي قوله المشهورة: «أردت عَمِراً وأراد الله خارجاً». ونجحت خطوة اغتيال علي بن أبي طالب، ونحاول الآن استقصاء عوامل نجاحها.

١- فدائية الخوارج، وهي عامل مشترك بين الثلاثة الذين نفذوا ماعليهم دون تردد ودفعوا حياتهم ثمناً لها، لولا أن صاحب

معاوية لم يظهر قدرة في توجيه الضربة القاتلة إذا لم نضع في الحسبان وضع معاوية الأكثر حصانة من زميليه لما عرف به من دهاء وحذر.

٢- وجود الرتل الخامس لمعاوية في معسكر علي، مع خوارج في الكوفة بحكم كونها المكان الرئيس للحركة التي انشق عنها الخوارج. وكان علي قد ترك للخوارج بعد معركة النهروان حرية الإقامة في عاصمته ولم يلاحقهم. وقد تمت العملية بتسيير مشترك مع الطرفين، عملاً معاوية والخوارج. وكان من العناصر البارزة في الرتل الخامس الأشعث بن قيس زعيم كندة وحفيد ملوكها الغابرين. وتقييد المصادر أنه ساعد الفدائى الخارجى فى الاختفاء حتى يحين موعد التنفيذ، وكان معه صبيحة اليوم الموعود. وقد دفع ذلك بعض المؤرخين الذين لا يعرفون ألا عيب السياسة إلى جعل الأشعث من الخوارج^(١٩) ، وهو في الحقيقة عدو مشترك لهم ولعلي وحليف سري لمعاوية. وكان من الذين حرضوا علي على مقاتلة الخوارج في النهروان بدلاً من استئناف الحرب ضد معاوية. وكان التخلص من علي هدفاً كبيراً لمعاوية سعى إليه الأشعث ومن على شاكلته من زعماء الاستقرارية العربية في العراق.

٣- عدم توفر إجراءات صيانة لحياة علي. وقد أشرنا إلى ذلك في قضية عمر بن الخطاب. والخلل هنا أشد، لأن عمر كان يحكم من دون معارضه مكشوفة أو جدية حتى عامه الأخير، أما علي فحكم وسط قلائل دامية وجبهة مفكرة. وكما بينا، كان المنشقون

(١٩) منهم سبط بن الجوزي . وهو مؤرخ لامع ، في «مرآة الزمان» مخطوطه في يض الله أفندي (مكتبة مليت باسطنبول) رقم ١٥٢١ . المجلد الرابع في ترجمة علي بن أبي طالب . كذلك : أبو الفرج الأصفهاني - مقاتل الطالبيين ط - القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٣ باب مقتل علي بن أبي طالب . البلاذري - أنساب الأشراف بيروت ١٩٧٢ ج ٥/٤٩٢ .

عليه من الخوارج وخصومه من عملاء معاوية يجاورونه في الكوفة دون أن يتعرضوا للملحقة. وقد تحسس أعوانه بالخطر وحذروه من الاغتيال ولم يلتفت إليهم ورفض أن يخصص له حرس شخصي. وهو ما كان الخوارج يعرفونه جيداً، فقد أورد الطبرى أن صاحب معاوية أخبره بعد القبض عليه أن علي بن أبي طالب قد يكون قتلى في نفس الساعة، وكشف له عن خطتهم. ولما شك معاوية في احتمال نجاحهم في قتل علي قال له الخارجي: إن علياً يخرج وليس معه من يحرسه. وقد حاول أولاده وبعض أعوانه الخلوص أن يحرسونه من بعيد ولكن إجراءهم لم يكن جدياً. وهم بلا شك ملومون على ماحدث لأنهم وقد استوعبوا الخطر كان بمقدورهم أن يشكلوا حراسة منظمة من بينهم دون أن يشعروا بهما. أما المراقبة من بعيد فقد دلت على بؤس القائمين بها لأن الفدائي الخارجي نفذ إلى المسجد واقترب من علي، الذي كان يصلى وحده، دون أن يثير انتباه أحد إلا بعد أن صاح على اثر الضربة. وكانت صيحة مضروب فلعموا أنه أصيب.

٤ - من الملاحظ أن كلاً من خطة الخوارج الثلاثية وخطة اغتيال عمر بن الخطاب نُفذت عند الصلاة. وتفسير ذلك أن للصلوة موعداً معلوماً لا بد أن يظهر فيه المطلوب اغتياله ليؤم المصلين مما يوفر ضبطاً في توقيت العملية لايتسير خارج أوقات الصلاة. يضاف إليه أن الإمام عند الصلاة يكون مكشوفاً وسهل المنال لأن الصلاة تتم -حسب الأصول الشرعية- دون شكليات وتوجب أن يندمج الإمام بالمصلين ليتساوى معهم. وقد بلغ التشدد في هذا المبدأ أنهم حرموا أن يصلى الإمام على دكة حتى لا يكون أعلى مقاماً من المصلين. وقد بادر معاوية بعد التجربة التي مرت به

إلى تسكير هذه الثغرة فأمر ببناء مقصورة منفردة يوم منها المصلين. وهو إجراء مخالف للشريعة. ولكن من المعروف أن معاوية لم يكن من الخلفاء الراشدين وكان في سياساته معنياً بتأمين مصالح امبراطوريته وليس بتنفيذ أحكام الشريعة.

٥ - من الجدير بالذكر أخيراً أن قاتل علي استخدم سيفاً مسموماً. وقد اعترف بعد القبض عليه أنه سمي سيفه باتقان، لضمان أن تكون الضريبة مميتة إذا هو لم يوفق إلى توجيه ضربة قضية. وهو ما حدث بالفعل، فقد كان على القاتل أن يضرب ضريبة خاطفة توفر له وقتاً للهروب من داخل المسجد قبل أن يحاصره. وقد عاش الخليفة بعد الضريبة ثلاثة أيام رغم وقوعها في رأسه. ويستفاد من الوصف الذي أورده المصادر عن كيفية الوفاة أن السم انتشر في جسمه ببطء حتى أجهز عليه في اليوم الثالث. ونحن نستنتج من هذا أن خطة اغتيال علي كانت قد درست بعناية ومن جهات أخرى لاقتصر على الخوارج مما ضمن لها نجاحاً لم يتتوفر لخطة اغتيال معاوية.

ماذا حق الخوارج باغتيال علي؟

تدل خطة الاغتيال الثلاثي التي رسمها الخوارج ونفذوها على خصوبية في الخيال الغنفي تقتربن بحيوية التحرك غير المقيد باعتبارات ضيقة. وهي تمثل من هنا نهجاً قتالياً ثابتاً لا يطاله التردد ولا يخضع لدقة في الحساب أو براعة في التخريح النظري.

لكن أصحاب الخطة تجاهلو عنصراً هاماً في تكتكة العنف وهو ترتيب الأولويات في المواجهة ضد خصوم متفرقين ومختلفين في أهدافهم، وما يتيحه ذلك من إمكان العمل على كسب الأقرب إليهم لضرب الأبعد. وبالطبع فهذا يعني وجود توجه جبهوي، وهو مالم يعرفه تاريخ الخوارج قط. وقد انطوت الخطة من هذه الجهة على

خطاً سياسياً كبيراً تم خوضه مع نجاحها في اغتيال علي وحده، عن كارثة على الخوارج أنفسهم. فقد ترتب على مقتل علي بن أبي طالب إنتهاء خلافة الراشدين وإقامة الخلافة الأموية، وقطع أي احتمال للحوار السلمي يمكن أن يظل قائماً مع بقاء السلطة الراشدية. وقد وجد الخوارج أنفسهم بعد انفراط معاوية بالسلطة أمام عدو مختلف حصرهم بين خياري القتال أو البيعة.

أضاف إلى ذلك أن مقتل علي حرم الخوارج من الميزة التكتيكية التي تمثلت بوجود معاذرين متاحرين يشغلهما الاقتتال بينماهما عن التفرغ لهم. وكان لدى الخوارج بفضل وجود هذين المعاذرين فرصة ثمينة لتنظيم أنفسهم والعمل على إقامة قاعدة لهم في موقع مناسب خارج نفوذ علي ومعاوية اللذين اقتصرت سلطتهم الفعلية على الشام والعراق.

كان ثمة أيضاً خطراً لم يحسب الخوارج حسابه، فماذا كان سيحدث لو نجحت الاغتيالات كلها؟ الخوارج لم يطرحوا على أنفسهم هذا السؤال. والمصادر التي تحدثت عن الأمر لم تتحدث عن آلية لواحد يمكن أن تكون قد ارتاحت بالخطة في حال نجاحها. ويمكن القول ببساطة، حسب هذه المصادر، إن قرار الاغتيالات كان أحادياً مبتوراً يكتفي بتصنيفية الزعماء الثلاثة بوصفهم سبب فساد الأمة. وليس لدينا ما يدل على أن الخوارج فكروا في استثمار هذا الاقتحام الكبير للتحرك نحو استسلام السلطة وإعلان قيام خلافة جديدة. وهو الاتجاه المعقول الذي يبرر مثل هذه المغامرة ويعطيها مفعولها التاريخي المكافئ.

وفي ضوء هذه الثغرة الواسعة في الخطة فإن نتيجة شديدة الاحتمال كان يمكن أن تترتب على شغور القيادة الإسلامية وهي أن يقع تحرك من الجانب البيزنطي المتربص على حدود الشام لتوجيهه

ضربة سريعة وخاطفة كانت ستؤدي على الأقل إلى إعادة احتلال بلاد الشام. ونحن نعرف أن محاولات تحرك من هذا القبيل حصلت عند اندلاع الحرب الأهلية بين العراق والشام مرتين، في عهد معاوية وفي عهد عبد الملك بن مروان. لكنها اصطدمت حينذاك بخلفيتين عظيمتين كانتا مواهباًهما السياسية والعسكرية تتألق في ظروف الأزمات فتمنحهما القدرة على احتواء التحركات المضادة مهما تعددت جبهاتها. وكان من المستبعد أن لا ينجع البيزنطيون هذه المرة مع ماسيحدهم اغتيال القادة الثلاثة من احتلال في أوضاع الأقاليم الإسلامية المصادقة لهم؛ الشام والعراق ومصر، وهي نفس الظروف التي مكنت الصليبيين في عصر لاحق من القيام بفتحاتهم الظافرة في الشام.

ولم يكن للخوارج من الحنكة السياسية ما يصّرّهم بهذا المرتب. وتدل خطتهم الثلاثية على براعة حزب مسلح يمتلك المؤهلات العالية للاقتحام العسكري الناجح، لكن غير المقربون بتخطيط سياسي يبرر الإقدام عليه. فالخوارج كانوا مقاتلين جمعوا إلى الروح الفدائية فقرأ ملحوظاً في العمل السياسي. ويصدق هذا الوصف على الفرقة بتشعباتها العديدة طوال الخلافة الأموية، ولو أنهم اكتسبوا من بعدها بعض الخبرات التي ساعدتهم على التوصل إلى إقامة كيانات سياسية صغيرة نسبياً، خلال الحقبة الأولى من الحكم العباسي.

تعقيب: في تعليق على الكتاب قالت جريدة النهار البيرورية أنني أغفلت في مسألة اغتيال علي وجود تواطؤ عليه بين الخوارج ومعاوية. وهي تبني ذلك على رواية مفردة تقول إن الخارجي المكلف بقتل معاوية أبلغه أن علياً مقتول في هذا اليوم وإن لم يقتل فإنه مستعد للتوجه إليه وقتله. وكان ذلك في محاولة للتخلص من القتل. وأن معاوية حبسه حتى جاء الخبر بقتل علي فأطلقه. ويقول أبوالفرح في

«مقاتل الطالبيين» ص ٣٠ أن بقية الرواة متفقون على أن معاوية قتل الخارجي في الحال. وحتى لو صحت الرواية الأولى فهي لا تتضمن خطة مسبقة مع الخوارج بل مبادرة فردية من رجل أراد التخلص من القتل. ويستحيل على الخوارج أن يعقدوا مثل هذه الصفقات..

اغتيال مالك الأشتر:

كانت مصر من محاور الصراع بين علي بن أبي طالب والأمويين لما تتمتع به من ثقل استراتيجي يمكن أن يساهم في ترجيح كفة الطرف الذي يسيطر عليها. وقد اختار علي لولاه مصر أول الأمر قيس بن سعد بن عبادة فاستطاع ضبطها وإحباط محاولات الأمويين لانتزاعها من علي. غير أن معاوية توصل فيما بعد وبأساليبه الماكنة إلى زعزعة الثقة بين قيس وخليفته، القليل الدهاء، فعزله عن مصر. وقد عين علي في مكانه ربيبه محمد بن أبي بكر وهو شاب متوجه ولكنه ضعيف الخبرة. بيد أن علي وقد أدرك جسامته الخطر الذي يتهدد مصر سعي لتعزيز الولاية بشخصية كفؤة أخرى هي مالك الأشتر أحد قادة الحركة المسلحة التي أوصلته إلى الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان. وقد سبب تعيين الأشتر لولاية مصر قلقاً شديداً لدى معاوية فسعى لمنعه من الوصول إليها. وتحتختلف الروايات في وصف الطريقة التي تم بها لمعاوية الخلاص من الأشتر ولو أنها تتفق في جملتها على أنه اغتيل وهو في طريقه إلى مصر.

وفيمما يلي عرض لهذه الروايات مأخوذ من «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد ..

١- إن معاوية بعث إلى رجل من أهل الخراج يثق به وعرض عليه أن يعفيه من الخراج المترتب عليه طيلة حياته إذا تمكن من

اغتيال الأشتر. وكان هذا الرجل يقيم في مفترق سبل تؤدي إلى مصر والجهاز على البحر الأحمر يمر منه من يريد التوجه إلى مصر. فلما وصل الأشتر إلى هناك تلقاه الرجل وضيّقه. وكان قد أعد شربة عسل مسمومة فقدمها له بعد الطعام فلما شربها مات على الأثر.

٢- إنه بعث رجلاً ليتابع الأشتر حتى يحتال في اغتياله. وكان الرجل يحمل مزودتين فيهما شراب. فاستسقاءه الأشتر يوماً فأعطاه من إحدى المزودتين، وكانت مسمومة ولما شربها مال عنقه ومات. وهرب الرجل قبل أن يلحق به رجال الأشتر.

٣- إنه دس إليه رجلاً من موالي عمر بن الخطاب. وكان آل عمر قد انحازوا إلى الأمويين منذ أيام عثمان لكن معسرك علي لم يصل إلى درجة القطيعة معهم، بتأثير بعض الوشائج التي كانت تجمع بين علي وعمر في سنواته الأخيرة، وقد أطمأن الأشتر إلى الرجل وضمه إلى مرافقيه في سفره. وبينما هم في بعض الطريق وعطش الأشتر قدم له المذكور شربة سويق مسمومة فمات منها (٢٠).

تفق هذه الروايات على أن الأشتر اغتيل بالسم وبتدير من معاوية وأن السم دس في شراب من عسل أو ماء أو سويق. ورواية العسل أكثر شيوعاً، وقد وردت عن الواقدي وهو مؤرخ مبكر وموثق، وروايته تفيد أن الرجل الذي سم الأشتر كان دهقاناً في العريش. وهذه البلدة من أعمال مصر لكنها قريبة إلى الشام. وقد اقتربت بالحادث كناعة مشهورة لمعاوية وهي قوله بعد أن بلغه نفاذ خطته: «إن لله جنوداً من عسل، أو منها العسل» (٢١). والله كما نعلم قاسم مشترك

(٢٠) ابن أبي الحديد ٢٩/٢ . السويق شراب يتخذ من دقيق الحنطة أو الشعير .

(٢١) بن أبي أمية - عيون الأنبياء، في طبقات الأطهاء . بيروت ١٩٦٥ م ١٧٤ ترجمة الطيب ابن أثال الذي كان يستحضر السموم لمعاوية بن أبي سفيان .

لجميع الأطراف والطبقات والأحزاب المتصارعة في المجتمعات الأديان السماوية الثلاثة.

أدى اغتيال الأشتر إلى خسارة قائد كبير كان علي بن أبي طالب يعتمد عليه كثيراً في صراعه المير ضد الأمويين مما مكن معاوية أخيراً من الاستيلاء على مصر بعد أن انفرد بحاكمها الضعيف محمد بن أبي بكر.

وقد نجحت الخطة لأنها اعتمدت، بحسب الروايات كلها، على استغفال مالك الأشتر وهو درس استفاد منه اللاحقون في إحباط وتنفيذ خطط مماثلة كما سيأتي تفصيله في القسم التالي.

دلائل مستخلصة من حوادث الاغتيال الراسدية:

ترجع الاغتيالات في هذه الحقبة إلى الأصل الذي بني عليه الاسلام كتحرك سيا - اجتماعي أملته ظروف العرب الخاصة في المقام الأول، والظروف العامة للمنطقة في المقام الثاني. وقد رأينا كيف سلك مؤسس الاسلام بعد هجرته إلى يثرب خط العمل العسكري، بما في ذلك الاغتيالات، كنهج ثابت أشاح به عن نهجه التبشيري الذي اتبעהه في مكة. وترتهن سياسات النبي محمد في يثرب بصراع قومي موجه لتوحيد أمة / أرض في دولة ومجتمع. بينما يعكس نهجه في مكة حالة صراع اجتماعي داخل معاشر محدود هو العشر القرشي - المكي. وكان ثمة صراع من هذا القبيل في يثرب ولكن داخل نفس الحركة، بين الفئات الاجتماعية والقبلية التي تكون منها كتلة الصحابة المشكلة لقوام الحركة في طورها الباشري.

وحيث أفلح الاسلام في إقامة مجتمع ودولة شملت الجزيرة بأمتداداتها العراقية والشامية وماوراءها من أقاليم، فقد تعين عليه

أن يواجه كل مرتکباتهما. فالمجتمع يعني الصراع والدولة هي أداة الصراع التي لا وجود لها من دونه. وهو أداة قابلة للتداول. (اسم الدولة في العربية مأخوذ من هذا المعنى الدال في وجوهره على الصراع). ولو أراد محمد لحركته أن تكون دعوة ولنفسه أن يكون محض مبشر فإن شيئاً مما قد سردناه للتو لن يقع في أوانه. ولو أنتا قد لانعدم عندئذ شيئاً آخر، ولكن بعد مضي قرون يكون فيها الاسلام قد تمكّن من قلوب الناس، وتوطدت مؤسسته الدينية، المؤهلة لأن تضع نفسها في خدمة دولة خارجة عنها لتكون أداتها القمعية أو غطاءها الايديولوجي، مثلاً تهياً للمسيحية والبوذية بعد ثلث قرون من وفاة صاحب الدعوة.

وهناك دلالة هامة في أن كتاب الاسلام المقدس لم يصطبغ، رغم مصاداته للكتب المقدسة التي قبله في طقوسيتها، بقداسة أحادية تجعل منه كتاباً إلهياً عديم اللحم والعظم، فقد استغرقه التناحر فأضافى عليه صفة خاصة به، ويتجاوز عدد المرات التي ذكر فيها القتل بمشتقاته في القرآن عدد المرات التي ورد فيها ذكر الصلاة بمشتقاتها (حوالى ١٧٤ مقابل ٩٩). ولغة الصراع في الاسلام تحريرية شديدة النبرة تذكر القارئ بلغة البلاغات الحربية. ولاشك في أن مؤسس الاسلام كان يستجيب في ذلك لمستلزمات وضعه/ مهمته التاريخية. وهو في الحقيقة لم يكن شديد الافتقار إلى الوعي بنواميس التاريخ البشري لأنه سجل في كتابه أن الناس لا يمكن أن يكونوا أمة واحدة فهم «لايزالون مختلفين، إلا مارحم ربكم، ولذلك خلقهم» خلقهم كما يقول المفسرون ليختلفوا لا ليتفقوا. وإذا كان الناس في حسابه لا يمكنهم أن يكونوا أمة واحدة فهو يعرف أيضاً أن أمته نفسها لن تتجوّه من الاختلاف. وقد عايش بنفسه ولاسيما في

مرحلة ما بعد مكة، جانباً من التكتلات التي بدأت تشق الصحابة إلى أجنبية. ولم يكن بمقدوره، لو أراد، أن يؤلف بين أتباعه، وهم طبقات لاطبقة واحدة، ولا أن يمنعهم من الاقتتال وهم ينظمون حياتهم وفقاً لعائق المادة وليس الروح، شأن غيرهم في كل زمان ومكان.

كان الصراع الذي خاضه الإسلام الأول من الحدة بما يكفي لتعزيز صياغة شخصية تناحرية مشتركة بين طبقات المجتمع الجديدة الظالمة والمظلومة. ولو أن هذه الشخصية لم تنشأ من فراغ إذ يمكننا في الواقع أن نتابعها في الشخصية الجاهلية التي يشغل السيف موقعاً مؤثراً في علاقاتها. والمجتمع الجاهلي هو كما نعلم مجتمع تناحرى لم يعرف السلم إلا كهامش استغرقه الأشهر الحرم الأربع في أضيق نطاق. ولم تقتصر هذه الظاهرة على الأغلبية الوثنية من العرب، حيث جرت العادة على اتهام الديانة الجاهلية بتأجيج العداوات، فالمسيحية الشرقية التي اعتقدها بعض القبائل، ومنها قبائل كبيرة مثل تغلب، لم تستطع أن تخلق من البدوي مسيحيّاً بسيطاً من الغرار الذي عرفناه مثلاً في الحيرة. يقول الشاعر المسيحي جابر بن حني التغلبي ردأ على استخفاف صدر من قبيلة بهراء تجاه قبيلته^(٢٢) :

وقد سبق لبني تغلب أن قتلوا ملكاً في الحادثة المعروفة. والشاعر يرد هنا ليس على بهراء وحدها، بل وعلى تعاليم الخد الأيمن لنبيه.. وثمة إدراك لضرورة هذا اللون من العلاقات يتمشى مع التورط فيها عملياً. فالطبرى ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه علم المسلمين أن يطيعوا الخليفة إذا استقام ويقتلوه إذا اعوج. ولما اقترح عليه أحدهم

(٢٢) جابر بن حني (وزن قصي) الشاعر من شعراء القرن السادس الميلادي . توفي عام ٥٧٠ م وهو عام ولادة النبي . والبيتان من قصيدة له في «المغشيات» التي جمعها المنضل الفسي المعاصر للمنصور . وهي من أوائل وأقدم مختارات الشعر الجاهلي .

الخلع بدل القتل ردّ عليه أن القتل أنكل من بعده، أي أكثر ردةً^(٢٢).
وسواء صدر هذا التوجيه عن عمر أو غيره فهو يحمل نزوعاً إلى
أدلة وشرعنة ماجرى في صدر الاسلام.

يمكننا أخيراً أن نرصد مؤشرين لهذه الأحداث: أولهما هو
دلائلها، رغم ما قد يكون فيها من تكدير لزاج الانسان المستريح، على
حيوية مجتمع غير قابل للاستخضاع، لأنه يشتمل في مقومه الأساس
على تلك الشخصية الاجتماعية القادرة على التصرف خارج دائرة
المحرمات حيثما اصطدمت بقناعاتها، أو بكلمة أدق، بمصالحها
الجوهرية.

الثاني أن الفنصر التحريري للاسلام يؤكد هنا حضوره على
حساب الدور التخديري للدين، إذ لايسعنا بحال أن نفصل ماحدث في
صدر الاسلام عن الاسلام نفسه. ويمكننا أن نتلمس في هذا المجرى
تلك المؤشرات المتعددة المصادر التي خصلت مجتمع صدر الاسلام
سواء مايعكس منه امتدادات المجتمع الجاهلي أو ما هو نتاج
الصراعات الاجتماعية التي سبقت أو زامنت نشوءه. وبالطبع فإن
هذه الحالة ما كانت لتستمر طويلاً مع وجود الدين كتكوين جوهري في
الوعي الاسلامي. وسنصادف في وقت مبكر نسبياً محاولات لاهوتية
لضبط سلوك المسلم يتتصدرها الحسن البصري، وهو فقيه ومتكلم من
أصل فارسي لم يعايش الاسلام الأول ولم يمتحن بموروثات العصر
الجاهلي. وكان يتكلم بلغة دينية ناضجة لاتشوبها لكنة جاهلية، من
ذلك الغرار المأثور لدى الاخبار الخلص. والحسن البصري هو من
أقدم مؤدلجي السلام الاجتماعي في الاسلام، ولو أن آرائه لم تتفق
في حياته لأنها ظهرت في وقت كان الفنصر التحريري للاسلام
لايزال أيداً في نفوس أتباعه وكان الكثير من الفقهاء لايزالون يتلقون

(٢٢) التاريخ . باب مقتل عمر . والمعترض هو طلحة بن عبيد الله .

الجلد والنفي على أيدي الخلفاء الأمويين وولاتهم. وقد أخرج ابن عساكر في ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي ما يلي: لما كانت فتنة ابن الأشعث - يقصد انتفاض أهل العراق بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي ضد الحجاج - دخل جماعة على الحسن فقالوا: ماتقول في هذا الطاغية الذي سفك الدم الحرام وأخذ المال الحرام وترك الصلاة و فعل و فعل؟ وذكروا من أفعاله فقال الحسن: «لاتقائهم فإنه إن يكن عقوبة من الله فما أنتم برادي عقوبة الله بأسياحكم. وإن يكن بلاءً فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحكمين». فخرجوا من عنده وهم يقولون: نطيط هذا العلح؟ وكأنوا قوماً عريباً فخرجوا مع ابن الأشعث^(٢٤). وإشارة ابن عساكر أنهم كانوا من العرب وأنهم نبزوا الحسن بأنه «علج» يقصدون أعمجي يكرس مادهنا إليه بشأن العنصر التحرريضي لاسلام صدر الاسلام بتركيباته المعقّدة التي لم يستوعبها الاكيبروس الناشئ الذي كان الحسن البصري يعبر عن اتجاهاته.

(٢٤) تهذيب تاريخ دمشق . . . ج ٤ / ٨٠ .
قولهم «ترك الصلاة» من قبيل التشهير ، فالحجاج كان متدينًا وحريصاً على الشعائر .

الفصل الثالث

في الخلافة الأموية

في هذه الحقبة، كانت الاغتيالات السياسية متقابلة بين السلطة والمعارضة. وقد مارسها الخلفاء الأمويون بدءاً من معاوية الذي استهلها باغتيال مالك الأشتر في خلافة علي ثم واصلها بعد انفراطه بالخلافة. أما المعارضة فقد انفرد منها الخوارج بالتوجه إلى انتقاد هذا التكتيك.. ونستقصي فيما يلي أهم وأشهر حوادث الاغتيال بادئين بما حدث منها على يد السلطة.

اغتيال الحسن بن علي:

كان الحسن قد سلم الخلافة لمعاوية بعد مقتل والده، انسياقاً مع نهجه الاستسلامي المعروف. لكنه اشتهر في عقد التسليم، تحت ضغط المتشددين من أصحاب علي، أن تعود إليه الخلافة بعد وفاة معاوية. وكان هذا الشرط في غاية الخطورة بالنسبة لمستقبل الخلافة الأموية، لأنه يعني احتمال استعادة الراشدين للخلافة في شخص

الحسن، الذي كان أصغر سنًا من معاوية. ولم يكن أمام الأمويين من خيار إلا التخلص من الحسن بوسيلة ما. لكن معاوية لم يستعجل الأمر، لأن وريثه يزيد كان لايزال صغيراً وكان التفكير في تعينه ولیاً للعهد سابقاً لأوانه. ولذلك عاش الحسن لمدة عشر سنوات بعد تنازله وهو في دعوة ينتظر، أو على الأصح، ينتظر أصحابه موت معاوية ليعود إلى المطالبة بالخلافة بحكم العقد المبرم بينهما. وفي هذه المدة كبر الوريث وصار مؤهلاً للولاية، كما جرى تطبعه في عيون أهل الشام وبني أمية على السواء، واقترب معاوية من شيخوخته بينما الحسن لايزال يتمتع بشبابه. وعندئذ بدأ معاوية يفكر في إزالة هذه العقبة التي تحول دون استمرار الخلافة في أسرته.

ثمة ما يشبه الاجماع على أن الحسن مات مسموماً، مع الميل إلى تحويل زوجته جَعْدَة بنت الأشعث الكندي مسؤولة ذلك. وقد وردنا شعر يرثى فيه كثير عزة - أو النجاشي الشيعي - الحسن ويستهل بتوجيه الخطاب إلى جعدة إشعاراً باتهامها. وكنا قد أشرنا في القسم الثاني إلى موقف الأشعث بن قيس المناهض لعلي والتوافق مع معاوية. ويبدو أن هذه الزوجة كانت تدبّراً من علي للتقارب من الأشعث واستدراجه إلى جانبه. والأشعث زعيم كندة شبه المطاع إذ هو سليل ملوكها الغابرين. لكن حسابات علي لم تكن موفقة، فالمصالح الاجتماعية غالباً ماتعلو على اعتبارات القرابة ناهيك عن المصاهرة. وقد تواطأ الأشعث مع قتلة علي فليس من الصعب أن يكون لدى ابنته التي نشأت في بيت تامر، مناوئ لعلي وأولاده استعداد للقيام بدور مماثل لما قام به أبوها. وكان معاوية يعي هذه الحقائق وعي الحاكم الخبر باتجاهات وسراير رعایاه. ومن المثير للانتباه أن جعدة بقية زوجة للحسن الذي عرف بكثرة التطلّيق ولم تكن المرأة ثبت عنده إلا قليلاً. ولعلها بقيت كذلك تقديرًا لمكانتها وما ينجم عن ذلك من تمتن

الروابط مع قبيلة كندة القوية.

من بين الذين أكدوا تسميم الحسن، «المدائني». وهو من أقدم كتاب السير. وقد وردت روايته في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحميد^(١). وهي تفيد بأن الحسن توفي بعد مرض دام أربعين يوماً وأن معاوية دس له سماً على يد جعدة بنت الأشعث زوجته وقال لها إن قتليه بالسم فلنك مئة ألف (درهم) وأزوجك يزيد ابني. فلما مات الحسن وفى لها بالمال ولم يزوجها من يزيد لعدم اطمئنانه إليها. لكن قول المدائني أن مرض الحسن دام أربعين يوماً غير واقعى بالنسبة لسموم. ويغلب على الظن حصول التباس في معدود الأربعين، وقد ورد في رواية ابن عساكر^(٢) أن الحسن بعد أن سماً كان يوضع تحته طست ويرفع نحواً من أربعين مرة. يشير إلى ما أحدثه السم في بطنه من مفاسيل. فلعل المرة صارت في رواية المدائني يوماً على جهة الاشتباه. ونص على موت الحسن مسموماً ابن عبد البر في «الاستيعاب»^(٣) عن قتادة وأبي بكر بن حفص، وهما من قدماء الرواة. وأورد عن رواة آخرين أن جعدة سمته بتدسيس من معاوية. وقال هؤلاء الرواة في تعقيب على هذا الخبر أن جعدة كان لها ضرائر. والمقصود من ذلك إلقاء الشك على علاقتها بزوجها قبل أن يحدث له ماحدث.

وأشار إلى موته مسموماً ابن حجر في «الإصابة» و«تهذيب التهذيب» وابن الأثير في «أسد الغابة». والكتب الثلاثة هي، إلى جانب الاستيعاب من المصادر المعتمدة في التراجم.
ويلاحظ تجاهل الطبرى لوفاة الحسن فلم يذكرها في حوادث

(١) المجلد ٤ ص ٥ . وكتاب المدائني مفقود .

(٢) تهذيب تاريخ دمشق / ٤ / ٢٢٩ .

(٣) الترجمة ٥٥٥ الحسن بن علي . ج ١/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

السنين التي يرجع المؤرخون وفاة الحسن في إحداها. لكن ابن الأثير ذكرها في حوادث سنة ٤٩، ونص على وفاته مسموماً على سبيل القطع كما فعل في «أسد الغابة». وهو بذلك يستدرك على أستاده الطبرى (تاریخ ابن الأثير «الکامل» مبني على تاریخ الطبرى حتى السنة التي ينتهي بها ثم يكملها حتى السنة التي تسبق وفاته وهي سنة ٦٢٩ هـ). لكن الطبرى ذكر ذلك في «ذيل المذىّل» عند ترجمته للحسن. والطبرى يتحسس للأخبار التي تسيء إلى الأميين فيسعي لاستبعادها ما استطاع.

وروى ابن كثير في البداية والنهاية (حوادث ٤٩) أن الحسن مات مسموماً بتدبير من معاوية. وأن الذي دس إليه السم خادم له، في روایة، وفي روایات أخرى زوجته جعدة. وأثبتت الرثاء الذي يستهله الشاعر بمخاطبة جعدة ونسبة إلى كثير عزة. والروایة التي تتهم الخادم بتسميمه غير مشهورة في المصادر، التي تميل في جملتها إلى اتهام الزوجة بذلك.

وريط أبو الفرج مشروع البيعة ليزيد بالتخليص من شخصيتين هما الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص^(٤). وكان سعد من بين القلائل الذين تبقوا من قادة الإسلام الكبار، الذين يعسر تحطيمهم في خطط الاستخلاف، لاسيما لشخصية عادية مثل يزيد. ويجب أن يفسر التخلص من سعد، إذا صحت روایة أبو الفرج، بمعارضته لاستخلاف يزيد وليس بطبعه في الخلافة لأنه كان يومذاك قد عمى، وبالبصر شرط رائئ في صحة الاستخلاف عند المسلمين. إن لجوء معاوية إلى السم للتخلص من المناوئين قد أشار إليه ابن أبي اصيبيعة لدى ترجمته للطبيب السريانى ابن أثال. فقد جاء في «عيون الأنباء» أن ابن أثال كان متخصصاً بالسموم، وأن معاوية كان

(٤) مقاتل الطالبين القاهرة ١٩٤٩ ح ٧٢ فصل وفاة الحسن .

يقره لذلك كثيراً. ثم استطرد فقال: ومات في أيام معاوية جماعة كثيرة من أكابر الناس والأمراء من المسلمين بالسم^(٥). وتلقي هذه الملحوظة الهامة لابن أبي اصيبيعة بعض الضوء على الوفيات المشبوهة لأمثال سعد بن أبي وقاص، رغم أن المؤرخين لم يعنوا باستقصائهما في ترجمتهم لهذه الشخصيات عدا الحالات المشهورة مثل حالة الحسن بن علي. ويبدو أن ابن أثال كانت له مدرسة ومربيون في هذا الفن، لأنه قتل في وقت مبكر من خلافة معاوية كما سنبين، بينما حدثت اغتيالات بالسم من بعده. ويمكن أن نستنتج أن من أسباب اهتمام معاوية بمسألة التخصص في تحضير السموم إنتاج سموم لطيفة لا يظهر لها أثر. وقد ذكرت الروايات التي تحدث عن موت الحسن إنه سقي السم مرات عديدة فلم يتم، مما ألجأ فيما يليه إلى استعمال وصفة أشد مفعولاً هي التي قتله. وتدل المحاولات الفاشلة السابقة على أن السموم كانت ضعيفة المفعول بسبب المبالغة في لطافتها.

بعد موت الحسن بدأ معاوية مساعيه العلنية لمبايعة يزيد ولية لعهده. وقد نظر بعض القدماء إلى هذا الحدث على أنه من الأحداث الفاصلة في تحول الخلافة إلى ملكية، وارتفاع وطأة الاستبداد على العرب. وينقل أبو الفرج عن رجل يدعى أبو اسحق أنه سئل: متى ذلَّ الناس؟ فقال: حين مات الحسن، وادُعِي زياد وقتل حُجْر^(٦). وهي ثلاثة أحداث متكاملة الدلالة في هذا الصدد، فموت الحسن أفسح المجال لمبايعة يزيد حيث اتخذ تحول الخلافة إلى ملكية شكله الرسمي، وادعاء زياد (استلحاقه بآل أبي سفيان) ارتنه بسلطيته على

(٥) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء . ط بيروت ١٩٦٥ من ص ١٧١ .

(٦) مقاتل الطالبيين ص ٧٦ .

العراق ليفرض على أهله أول سياسة قمعية يقع العرب تحت طائلتها. وقتل حجر (ابن عدي الكندي) بأمر من معاوية نظر إليه في حينه على أنه تحدي مباشر للعرب الذين كانوا حتى ذلك الوقت يجاهرون بمعارضتهم للدولة دون أن تجراً على قمعهم بهذه الطريقة.

اغتيال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد:

كان عبد الرحمن قائداً عسكرياً مرموقاً كوالده. وقد انضم إلى معاوية في صراعة ضد علي بن أبي طالب. وبعد أن استتب الأمر لمعاوية عينه لقيادة جبهة الفتوحات في آسيا الصغرى (أرض الروم)، التي بدأ المسلمون يقضبونها بالتدريج بعد إخراج البيزنطيين من بلاد الشام. وقد أحرز عبد الرحمن نجاحات كبيرة في حربه هناك جلبت له شهرة واسعة بين أهل الشام أضيفت إلى رصيده الموروث من والده. ويدرك الطبرى^(٧) أن عبد الرحمن انصرف عام ٤٦ من بلاد الروم إلى حمص وكان قد عزم شأنه بالشام وماle إلهها لما كان عندهم من آثار أبيه ولغائه عن المسلمين في أرض الروم وبأسه، حتى خافه معاوية فأمر ابن آثال أن يحتال في قتله. فلما وصل عبد الرحمن إلى حمص دس إليه ابن آثال شربة مسمومة، يقول ابن أبي أصبيعة^(٨) إنها شربة عسل، فمات منها. وكافأ معاوية ابن آثال بإعفائه من الضرائب طيلة حياته وتعيينه والياً على خراج (ضرائب) حمص.

إن رواية الطبرى، التي اعتمد عليها ابن عساكر وابن أبي أصبيعة كما يبدو، تجعل سبب الاغتيال خوف معاوية من منافسه عبد الرحمن

(٧) التاریخ . حوادث سنة ٤٦ ط الاستقامة ، القاهرة ١٩٣٩ . ج ٥ / ٢٢٧ . انظر أيضاً : ابن عساكر في ترجمة

خالد بن عبد الرحمن ٥ / ٨٣ .

(٨) عيون الأنباء ص ١٧٤ .

له في سلطانه، لكن رواية لأبي الفرج^(١) تربط الحديث ببيعة يزيد وخلاصتها أن معاوية لما أراد أن يظهر البيعة لابنه قال لأهل الشام إن أمير المؤمنين قد كبرت سنه ودق عظمه واقترب أجله ويريد أن يستخلف عليكم فمن ترون؟ فقالوا: عبد الرحمن بن خالد. فسكت وأضمرها في نفسه حتى دس إليه الطبيب ابن أثال، فسقاه سماً فقتله.

قد يكون محتملاً أن معاوية خاف على نفسه من عبد الرحمن عندما نعتبر أن تصفيته تمت في وقت مبكر نسبياً - بعد خمس سنوات من انفراده بالسلطة. لكن الباعث الأقوى يجب إرجاعه إلى بيعة يزيد إذ يصعب القول أن معاوية الذي انتصر على رجل كعلي بن أبي طالب يخشى رجلاً كعبد الرحمن بن خالد، بينما نجد عبد الرحمن يشكل خطراً حقيقياً إزاء ابنه يزيد، الذي لا يمتلك مثل رصيده. وتبدو رواية أبو الفرج من هنا معقولة أكثر، مما يحملنا على الاعتقاد أن اغتيال عبد الرحمن بن خالد يندرج في نفس الاعتبارات التي أدت إلى اغتيال الحسن بن علي والوفاة المشبوهة لسعد بن أبي وقاص وهي إزالة عقبات تقف دون البيعة ليزيد واستمرار الخلافة فيبني أمية.

تمت عملية اغتيال عبد الرحمن بن خالد في سهولة أكبر، بالقياس إلى اغتيال الحسن. ذلك لأن عبد الرحمن لم يكن يحس بحاجة إلى التحفظ من خطر كهذا نظراً لعلاقاته الطبيعية بمعاوية. وقد حدثت قبل اغتيال الحسن وقبل شیوع الحديث عن بيعة يزيد، أي في وقت لم تظهر لعبد الرحمن بوادر تشير مخاوفه. لكن العملية انكشفت بعد وقوعها وأدت إلى ردود فعل مباشرة

(١) الأغاني ج ١٦٠ - ١٤٠ ط بيروت - بلا تاريخ . في أخبار المهاجر بن خالد . تفهم هذه الرواية من حيث دلالتها على جس نبض المتنفذين من أهل الشام . أما التفاصيل التي تضمنتها فقد لا تكون واقعية بالضرورة ..

انتهت باغتيال الطبيب ابن أثال. وقد قام بذلك ابن المقدور أو ابن أخيه، بحسب اختلاف الروايات واسم كليهما خالد (تميل الروايات إلى أنه ابن الأخ). وتفيد رواية أبو الفرج أن هذا الشخص كمن لابن أثال في مسجد دمشق وكان يُمسى مع معاوية فلما خرج من القصر وحاذاه وثب عليه فقتله. وقد اعتقله معاوية وأمر بجلده مئتي سوط وأغرمه الديمة ألفي دينار. وبقي في السجن حتى وفاته. وتقول الرواية إنه قال لمعاوية عند اعتقاله: «قتل المأمور وبقي الأمر»^(١٠). وهذا مجرد تهديد، إذ كان المفروض أن يبدأ بالأمر لأن الفاعل الأصلي. لكن من الواضح أنه قد اختار الأسهل والأقل كلفة. وهو بذلك قد تصرف بموجب حساب مسبق حدد له سلوكاً مزدوجاً: لم يسكت عن الجريمة التي ارتكبت بحق والده، أو عمه. ولم يذهب في إدراك ثأره إلى المدى المطلوب حين قرر قتل المأمور دون الأمر. ومع أن المأمور يستحق نفس العقوبة (لاسيما وهو طبيب مؤمن على أرواح الناس فخان رسالته وتحول إلى أداة قتل بيد السلطان) فقد كان الأولى بالموتور أن يبدأ بال الخليفة، لولا أنه استرخص الثمن. ولاشك في أنه كان واثقاً أنه لن يُقتل إذا اغتال المأمور، بخلاف ما لو اغتال أو حاول اغتيال الأمر. وحسابه مبني على اعتبارين: مكانته الأعلى وبوصفه حفيظ خالد بن الوليد، ومكانة القتيل دون بوصفة طبيباً غير مسلم. وهو حساب مضبوط أدرك به جزءاً من ثأره من دون أن يكلفه حياته. وما يؤكّد لنا أنه أجرى هذا الحساب سلفاً ماذكرته رواية أبو الفرج من أنه أشرك في كميته رجالاً من مواليه يمتاز بشدة البأس ورسم له خطة تقضي بأن يكون هو الذي يتولى قتل ابن أثال بينما يقتصر دور المولى على المراقبة والحماية من ورائه. والفرض من هذا بينَ فلو أن المولى هو الذي تولى قتل الطبيب لكان من المحتمل أن

(١٠) المصدر السابق . أيضًا ابن عساكر ٥ / ٩٥ .

يُقتل به، لاسيما وهو يتجرأ على اغتيال طبيب الخليفة وأداته الضاربة في تصفية خصومه ومنافسيه.. وربما ساعدنا هذا الموقف الأخلاقي من جهته على ترجيح أن قاتل الطبيب هو ابن الأخ وليس الابن. وابن الأخ هو خالد بن المهاجر بن الوليد، وكان أبوه مع علي بن أبي طالب خلافاً لأخيه الموالي لعاوية والأمويين. ولابد أن الولد قد اكتسب من خلال ذلك شيئاً من أخلاقيات علي بن أبي طالب هي التي جعلته يتتجنب توريط مولاه في قضية تخصه شخصياً، رغم ما انطوت عليه خياراته من حسابات ربح وخسارة لم تكن لعلي بن أبي طالب خبرة كافية لها.

اغتيال عمر بن عبد العزيز:

تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بين عامي ٩٩ و ١٠١ هـ ومجمل مدته سنتين نصف. وكانت خلافته بمثابة انقلاب (أييض) ضد السياسة الأموية نفذ في أثنائه إجراءات كثيرة وجذرية استهدف بعضها الاتجاه العام للخلافة السائدة وبعضها الآخر المصالح المباشرة لأركان الأسرة. وكان مقدار الخطر الذي حملته خلافة عمر بن عبد العزيز على الوضع الأموي يكفي لإثارة ارتکاسات شديدة من جانب أسرته. لكن هذه الارتكاسات ظلت متقطعة وعبرت عن نفسها في احتجاجات هادئة أخذت في الغالب شكل عتاب أو نصائح من شيوخ الأسرة ووجهائها.. وفي هذا السياق المنطامن نفسه تأتي الوفاة العاجلة لل الخليفة لتضع حدأً لانقلابه القصير العمر.

توفي عمر بن عبد العزيز قبل أن يكمل الأربعين. وكان لايزال شاباً لم يستهلك طاقاته البدنية بالإسراف الذي اعتاده الخلفاء

وأبناؤهم في المذادات الحسية. وقد ذكر ابن كثير في حوادث ١٠١ من البداية والنهاية أنه مات بالسل، في رواية، وبالسم في رواية أخرى. لكن مصادر سيرة عمر لم تتحدث عن أعراض سل حين تحدثت عن مرضه الذي توفي به. وتنتجه معظم الروايات إلى القول أنه مات مسموماً. وقد أورد الطبرى في حادث ٩٩ التي أعقبت استخلاف عمر بعد أن استعرض مفاوضاته مع وفد من الخوارج أن بنى مروان «خافوا أن يخرج ماعندهم وفي أيديهم من الأموال فدسوا إليه من سقاء سماً». ذكر الطبرى ذلك بعد أن تحدث عن اتفاق وشيك بين الخوارج وبين الخليفة يعلن الخوارج بموجبه تأييدهم له مقابل خلع يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد. وكان يزيد ولباً لعهد عمر بموجب وصية سليمان بن عبد الملك التي تضمنت استخلاف عمر ثم يزيد، وكان ذلك هو الاعتراض الأساسي الذي أبداه الخوارج على سياسة عمر. وفيما يتعلق بخبر اغتياله بالسم فإن رواية الطبرى لها قيمتها الكبرى في إثبات هذا الاحتمال، لأن هذا المؤرخ الكبير قلماً يتبنى خبراً مضاداً للأمويين مالم يتثبت منه. وقال الكتبى في «الوفيات» مانصه: سقاء بنو أبيه السم لما شدد عليهم وانتزع كثيراً مما في أيديهم^(١١). بينما ذكر أبو الفدا في ترجمته لعمر في مختصره أن موته بالسم معروف لدى أكثر الناس. وقد نص على وفاته مسموماً كذلك الشعراوى في طبقاته عند ترجمته لعمر في المجلد الأول، بينما أورد الفزالي في أحیاء علوم الدين^(١٢)، أن أعراض تسمم ظهرت في مرض عمر الذي توفي فيه. اكتشف ذلك طبيبه وأخبره بها فقال عمر إنه قد أحس بالسم حين وقع في بطنه. وفي «حلية الأولياء» لأبى نعيم حكاية ذات مضمون غيبى تحدثت عن تسميمه نسبت إلى الوليد

(١١) انظر ط بولاق ١٢٨٢ هـ ٢٠ / ٥٠ .

(١٢) انظر ج ٤ / ٦٥ منط الحلبي ١٢٩٦ هـ . «كتاب الموت» . أيضًا : ابن الجوزى ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، القاهرة ١٣٣١ هـ ص ٢٧٧ .

ابن هشام (لم يذكر إن كان ابن عبد الملك) قال فيها: لقيني يهودي فأعلمني أن عمر سيلي أمر هذه الأمة فيعدل فيه. فلقيت عمر فأخبرته بقول اليهودي. فلما استخلف عمر ودنت وفاته لقيني اليهودي وقال لي: إن صاحبك قد سقي فأمره فليتدارك نفسه. قال فلقيت عمر فذكرت ذلك له. فقال: قاتله الله ما أعلم. لقد عرفت الساعة التي سقيت فيها^(١٢). لاشك أن مخترع هذه الحكاية قد استفاد من وجود خبر ذائع عن تسميم عمر لإعطائه «كرامة ولِي»، مما يحرض ذوو الأمزجة الصوفية على منحها للأولئك. ومن العتاد للحكايات التي تتلوى هذا الفرض أن تجري على لسان يهودي أو نصراوي لأنهم عند المسلمين من أهل العلم الأول الذين سبقوهم إلى الاتصال بالسماء.

وتقرن روایة لابن عبد الحكم تسميم عمر بحكایة عن ملك الروم تقول إن الملك المذكور لما بلغه سقي عمر أرسل إليه رأس الأساقفة وكتب إليه يعلمه حاله عنده وما يحفظه له من الحق عنده بوصفه من أهل الخير وطاعة الله ويقول له إنه قد بلغني أنك سقيت وقد بعثت إليك رأس الأساقفة وأطبّهم (أعلمهم بالطب) ليعالجك ممابك. فقدم عليه فقال له عمر: انظر إلى فجسسه فقال: سقيت يا أمير المؤمنين. وتقول الروایة إن عمر أبى أن يتقبل العلاج الذي وصفه له المبعوث الرومي. وأنه دعا في نفس الوقت الرجل الذي اتهمه بدس السم إليه فاستجوبه فاعترف وقال إنه خدع وغير فقال عمر: خدع وغر، خلوه، ولم يعرض له بشيء^(١٤).

(١٢) انظر الترجمة ٣٢٢ ج ٥ ط مصر ١٩٣٥ .

أيضاً : ابن الجوزي - المصدر السابق من ٢٧٦ .

(١٤) سيرة عمر بن عبد العزيز . القاهرة ١٩٢٧ ص ١١٨ - ١١٩ .

والحكاية بقدر ما يتعلّق بملك الروم باطلة، لأن مدة وصول الخبر وإرسال رأس الأساقفة لا تتناسب مع حالة مسموم. ولو أثنا لانعدم أن نجد لها أساساً لأن خلافة عمر كانت فترة سلام مع البيزنطيين، وقد سحب عمر القوات التي كانت تحاصر القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك، كما أظهر ميلاً إلى عدم التوسيع في الفتوحات حيث كان يقول: «حسب المسلمين ما فتح الله عليهم». فمن المنطقي أن تكون للبيزنطيين مصلحة في بقاءه. وقد يكون صدر عن الامبراطور البيزنطي في هذه الأثناء رد فعل ما، فصاغ منه الناس حكاية. ومن الطريف في هذه المناسبة أن بعض المصادر زعمت أن ملك الروم نهى عمر لقومه حين بلغته وفاته ورثاه رثاءً مؤثراً

لايسعنا أيضاً قبل الخبر المتعلق بالتهم بدس السم، فانكشف مثل هذا لفعل ليس سهلاً. وإذا انكشف فليس من السهل ترك المتهم طليقاً، إن لم يكن من جهة عمر فمن جهة أولاده. كما أن الذين يقفون وراء المكيدة سيجدون أنفسهم مضطربين إلى القضاء على أدائهم الجرمية لإخفاء مكيدتهم. ومايسير أن يأمر الخليفة الأموي الذي استلم بعد عمر بقتل المتهم «غضباً» له و«انتقاماً» من القاتل... .

مهما يكن من شيء فإن روایات اغتيال عمر بالسم هي الأرجح بين المؤرخين. وقد ذكر أبو الفدا في ترجمة عمر من مختصره أن أكثر الناس يميلون إلى هذا الرأي. وليس لدينا في الحقيقة ما يضعف هذه الروایات غير سكوت بعض المؤرخين عنها، بينما لا نجد مؤرخاً عني بتأطيلها أو تقدم برواية أخرى تصلح للتوثيق. وسكوت بعض المؤرخين يرتهن بالطبيعة السرية للحدث وهو كما رأينا حدث غير اعتيادي تقوم به أسرة حاكمة ضد خليفتها الذي يتمتع بشأن خطير ومكانة لاتطال.

علامة استفهام :

تقول بعض مصادر سيرة عمر إنه لم يتخذ عبيداً لمنزله أثناء الخلافة. لكن هذا لا يمنع أن يكون له خدم يتولون شؤونه الشخصية والمنزلية. وهناك ما يدل على أن مائدته كانت، على بساطتها، تحضر وفق الأصول وأنه كان يساهم أحياناً في ترتيبها كجزء من سلوكه الشخصي المتمس بالتواضع. فهل دس السم في طعامه أو شرابه من طرف بعض الخدم؟ من بنا أن بعض الروايات صرحت بذلك. وهو احتمال وارد، إذ من المعروف أن الخدم كانوا من الأدوات الشائعة مثل هذه المكاييد... لكن لدينا احتمال آخر قد يتواجد إلى الذهن.

كان عمر بن عبد العزيز متزوجاً من ابنة عمه فاطمة بنت عبد الملك. وكانت حياتها معها قبل الخلافة مترفة بالحب والنعم. ولكنها أصيبت بخيبة أمل كبيرة بعد استخلاف عمر. وقد أوردت المصادر عنها أموراً تدل على تبرمها الشديد بحياتها في تلك المدة. ومن ذلك إفادة لها بعد وفاته تقول فيها إنه لم يغسل من جنابه منذ تولى الخلافة حتى مات^(١٥). ومثل هذه الإفادات كانت مألوفة من نساء العرب في صدر الإسلام فلا يستبعد صدورها عن زوجة عمر، ولو أنها قد تكون غالبة في ذلك لتعبر عن مدى عزوفه عن متع الحياة بسبب انهماكه في تطبيق سياساته الإصلاحية.

بالطبع لم يكن في مقدور أميرة مدللة ربيت في بيت امبراطوري تجبي لها كنوز الدنيا من المحيط الأطلسي إلى الصين أن تتقبل وضعاً كالذي أراده لها خليفتها الزاهد، فطبع هؤلاء الناس هي أبعد ماتكون

(١٥) طبقات ابن سعد . ليدن ١٢٢٢ هـ . ج ٥ / ٢٩٤ في ترجمة عمر بن عبد العزيز . أيضاً : ابن عبد الحكم ص ٥٠ .

عن القناعة والعزوف عن الامتيازات الخرافية التي ينعمون بها. ورغم أن المصادر ذكرت أن فاطمة تابعت زوجها في البدء في التخلص من بعض مقتنياتها النفيضة وإرجاعها إلى بيت المال، فقد عادت تتذمر فيما بعد إلى الحد الذي جعلها تصرح بتلك الإفادة المثيرة عن حياتها الجنسية. وقد تحدثت الروايات في نفس الوقت عن علاقة حب جمعت بين الزوجة الساخطة وبين رجل من أبناء عمومتها بدأت في أيام عمر وانتهت بالزواج من هذا الرجل بعد وفاة الخليفة. وقد هجيت بسبب ذلك بشعر نسبه ابن عساكر^(١٦) إلى الأحوص وصاحب الأغاني^(١٧) إلى موسى شهّوات وهو شاعر من موالى قريش. وفي رواية أن عمر سمع زوجته أو جاريتها تقول: أراحنا الله منك. وقد وردت في مصدر معتمد وعن محدث قريب الزمن منه^(١٨). بالاستناد إلى هذا الوضع يتوارد احتمال أن تكون للزوجة يد في التخلص من الخليفة. وهو احتمال لا يستبعده ولا أثبتته: لا يستبعده لأنه طبيعي جداً في هذه البيئات ومن هؤلاء الناس في ظرف كالذي وصفناه للتلو. ولا أثبتته لأنني لأملك رواية صريحة أو ضمنية تدل عليه. مهما يكن فإن مصير عمر بن عبد العزيز قد تقرر كما رجحنا في منزله وأن خطة تصفيته رسمت من طرف أسرته. وقد استعادت السياسة الأموية سيرتها الأولى على يدي يزيد بن عبد الملك تبعاً للترتيب الذي أوصى به سليمان بن عبد الملك. ولو قدر لعمر أن يستمر في الخلافة مدة أطول، وهو أمر كان

(١٦) تهذيب تاريخ دمشق ١٩٩/٥ .

(١٧) ج ٢/٤ . في أخبار موسى شهّوات .

نص الشعر :

أبغض الأغر ابن عبد العزيز قريع قريش إذا يذكر
تروجست داود مختارة الا ذلك الخلف الأعور

(١٨) تاريخ أبو زرعة الدمشقي ١٩٥/١ ، فقرة ١٢٨ . دمشق ١٩٨٠ .

في قيد الإمكان لأنه حين مات لم يكن قد بلغ الأربعين، لكان ممكناً أن يشتد ساعده المعاشرة الإسلامية للخلافة الأموية لتنتهي إلى انقلاب جذري يعيد حكم الخلفاء الراشدين، الذي بقي طوال الحكم الأموي حلماً مشتركاً لجمهور المسلمين. وهو ما كان الأمويون يخشونه من خلافة عمر بن عبد العزيز. وقد جسدت هذه المخاوف عبارة شديدة الوقع ينسبها ابن عبد ربه إلى مسلمة بن عبد الملك قالها بعد وفاة عمر^(١٩): «أما والله ما أمنت الرق حتى رأيت هذا القبر» والرق الذي يقصده مسلمة هو خروج السلطة من أيديهم وتحويلهم إلى رعایا.

وفيات مشبوهة

ذكرنا عند الكلام على اغتيال الحسن بن علي ما أورده أبو الفرج عن موت سعد بن أبي وقاص مسموماً بتدير من معاوية. وهو خبر لم يشتهر بين المؤرخين فسجلناه على ملاك الوفيات المشبوهة. وهناك وفيات أخرى حصلت في ظروف غامضة أو جاءت فيها روايات اغتيال غير مقطوع بها يمكن وضعها في نفس العداد. ومنها :

وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية:

شاب تولى الخلافة بعد والده. ويتردد المؤرخون بين وصفه بالضعف ووصفه بالورع وعدم الرضا عن سياسة أبيه وجده. وقد تنازل عن الخلافة بعد أربعين يوماً أو ثلاثة أشهر واعتكف في منزله. لكنه لم يعش طويلاً فقد مات في نفس السنة وهو في الثالثة والعشرين. وتقول بعض الروايات إنه مات بالطاعون وبعضها إنه مات

. (١٩) العقد الفريد ط أحمد أمين - القاهرة ٤٣٧/٤

مسوماً. وهو بعد أن تنازل واعتزل السياسة لم يبق من له مصلحة في التخلص منه مالم نأخذ بروايات يقول إنه أظهر ميلاً راشدية تحت تأثير مؤدبه عمرو بن مقصوص وكان من القدرة.

وفاة مروان بن الحكم:

تولى مروان الخلافة بعد معاوية بن يزيد مسجلاً بذلك انتقال السلطة من آل أبي سفيان إلى آله. وقد توفي بعد تسعه أشهر من استخلافه. وكان قد تزوج أرملة يزيد بن معاوية وهي أم ابنه الثاني خالد الذي طالب بالخلافة بعد تنازل أخيه لكن صغر سنها لم يساعدته في تحقيق هذه الغاية. ويقال أن مروان تزوج أمها بقصد إذلاله، وأنه شتمه مرة فقال له: يا ابن الرطبة! فتأبلغ خالد ذلك إلى أمها ولامها على الزواج من مروان فحملت ووادته بالانتقام منه. وفي الليل انتهت نوم مروان وتواتأت مع جواريها فألقين مخدة على عنقه وقعدن عليها حتى اختنق. وهذه أقرب إلى أن تكون حكاية لرواية. على أن موت مروان قد حامت حوله بعض الشكوك رغم أنه كان قد قارب السبعين. وقد أورد اليعقوبي رواية تفيد أن أم خالد سقته سم في لبن^(٢٠). وهو أمر غير مستبعد في بيئات القصور. بينما ذكرت بعض المصادر أنه مات بالطاعون. وقد يكون، ولو أنها لانملك دليلاً على حصول موجة طاعون بالشام سنة وفاته.

وفاة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز:

هذا الحادث هو أكثر الحوادث مدعاة للريبة. فقد كان عبد الملك غلاماً في السابعة عشرة حين مات فجأة في خلافة والده. وكان هذا الغلام أعجوبة في وعيه الديني والسياسي وقد وقف إلى جانب

(٢٠) التاريخ ط . النجف ١٢٥٨ هـ . ج / ٢ ، ص ٤ .

والده في سياساته الاصلاحية المعادية لأسرته، وكان أشد تطرفاً منه وأكثر اندفاعاً في تنفيذ الاصلاحات. وقد تبناء الخوارج لهذا السبب. وتزعم بعض مصادرهم أن والده دفعه حين مات إلى مندوبيهم الذين كانوا في ذلك الحين يفاضلونه، ليتولوا غسله ودفنه بأنفسهم، باعتباره «صاحبهم». وكان من بين هؤلاء أبو حمزة، الذي احتل الحجاز في وقت لاحق، أيام مروان الحمار، وهو الذي صلى على الولد صلاة الجنازة كما تقول الرواية الخارجية^(٢١).

لم أجد فيما رجعت إليه من المصادر شيئاً عن هذه الوفاة المفاجئة لغلام في السابعة عشرة، ولا ما يعين المرض الذي مات منه. فهل مات مسموماً؟ المصادر أيضاً لا تتضمن ما يشير إلى أعراض تسمم ظهرت عليه. على أن الحاجات التي طمنها رحيل هذا الغلام تلقي شيئاً من الريب على وفاته. لاشك أن الأسرة التي كانت تسعى لإنهاء خلافة الوالد قد وقفت على اتجاهات الولد فصار واضحأً لها أن بقاءه بعد والده يجعل العودة إلى سياساته من بعده أمراً ممكناً. وهناك ما يدل على أن تجربة هذا الخليفة قد أثارت هلعاً لدى الأمويين من احتمال تكرارها^(*). وهو احتمال يقويه وجود مثل هذا الوريث الخطير. ويؤخذ من رواية ابن الجوزي أن الأمويين كانوا يتخوفون من أن يكون عبد الملك بديلاً عن يزيد في ولادة العهد^(٢٢). وفي مثل هذه الحالة يكون من المعقول جداً أن يفكروا في تصفيته

(٢١) انظر : منهاج الطالبين للشتصي الرستاقى . القاهرة ١٩٧٨ . ج ١ من ٦١٨

(*) جاء، في «نسب قريش» لمصعب الزبييري أن هشام بن عبد الملك اتخذ طرزاً (قماش مطبوع) له قدر واستكثر منه حتى كان يحمل على سبعين جمل . وحمله على ذلك أن عمر بن عبد العزيز لما مเดه إلى أموالبني أمية لم يتعرض لما قطعوا من الشياطين ولبسوا بل ترکها لهم . فرأى هشام أن عصر أمام عدل وأن من يأتي بعده من أممة العدل يقتدي به فجعل يتخذ الماتع الجيد ويؤثر فيه ويليس ثم يدخله لولده . فإذا جاء بعده خليفة واستأنف سياسة عمر فسيكتفى لأولاد هشام شيء كثير نسبياً لاتشتمله المصادر لأنها مستعملة . ط - القاهرة غير مؤرخة . ص ١٦٤ فقرة ٤ .

(٢٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٦٤ .

الولد قبل الوالد، لأن قطع الأصل مع بقاء الفرع قد لا يحسم الداء.

من هنا يتقوى الشك في هذه الوفاة. ويمكن تفسير سكوت المؤرخين عن سبب الوفاة في ضوء الطريقة التي يمكن أن يكون قد تم بها إنهاء الغلام قبل والده. وهي هنا استخدام سم لطيف خفي الأثر لا يترك أعراضًا على المسموم. وعلى أية حال، ينبغي أن لا تستبعد ماتقدمه الطبيعة من خدمات مجانية في بعض الأحوال. فنجل الغلام قد مات في أجله الموعود كما يحدث لأقرانه ليوفر على ذويه إثماً زائداً كان عليهم أن يقللوا به ضمائراً. ولو أن المشكلة تبقى قائمة على أي حال لاسيما حين نعلم أن الولد لم يمت وحده، فقد لحقه عمه المسمى سهل بن عبد العزيز وكان على نهج أخيه ومن أعونه الأشداء على الإصلاح. ثم لحق بالاثنين مولى عمر المسمى مزاحم وهو بدوره من أخلص أعونه. ويقول ابن عبد الحكم إن عمر صار بعد موت الثلاثة يتمني الموت ويدعو الله لأجل ذلك^(٢٢). وأنه لسؤال صعب أن يكون القضاء والقدر قد مالاً بني أمية إلى هذا الحد فصفى لهم أربعة خصوم كلهم شبان في أقل من سنة؟

وفاة يزيد الناقص

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك. كان يعارض سياسة أسرته، وقد استصبأ القَدَرِيَّة المناهضون لهذه الأسرة فانضم إلى جبهتهم ثم قاد تمرداً مسلحاً في ضاحية المزة، من ضواحي دمشق، وزحف على دمشق فاحتلها وقضى على حكم الوليد، ابن عمه، الذي اشتهر بمجنونه وطفياته. وألقى يزيد عند مبايعته بالخلافة خطاباً ضمنه برناماً في الحكم شبيهاً ببرنامج عمر بن عبد العزيز مما كان يشكل

(٢٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ١١٤ .

«لكل من ابن عبد الحكم وابن الجوزي كتاب عن عمر بن عبد العزيز يحمل نفس العنوان» .

الأهداف المشتركة للمعارضة الإسلامية لحكم الأمويين.

مات يزيد بعد ستة أشهر من استخلافه وكان عمره أربعين. وتقول بعض الروايات أنه مات بالطاعون، غيرها أنه مات مسموماً. وليس لدينا ما يدل على أن طاعوناً جارفاً قد ضرب الشام في ذلك الوقت. واحتمال تسميمه قوي جداً وتبصره نفس الأسباب التي أدت إلى القضاء على عمر بن عبد العزيز. وقد أعقب وفاته استيلاء مروان الحمار على الخلافة بعد إزاحة شقيقه الضعيف ابراهيم بن الوليد. وربما كان لا خلفاء بني أمية، المشهور بهاته وجبروته، يد في تصفية هذا الخليفة القصير العمر.. ولو أن يعقوبي ينقل خبراً عابراً يتهم أخيه ابراهيم باسمه. والغريب لله وحده!

علي بن الحسين وابنه محمد الباقر:

حسب المؤثر الشيعي (الاثني عشرى) أن الأول مات مسموماً بتدبير من الوليد بن عبد الملك، والثاني بتدبير ابراهيم بن الوليد، وحسب مصادر التاريخ العام، مات الإمامان المذكوران في أجلهما الموعود دون آية شبهة وفي ظروف لا تتحمل أي شك في سبب الوفاة. ويعطي هذا المؤثر الباطل دليلاً على الانطلاق الم kukوس من الأدبيولوجيا إلى الواقع، لأنه مبني على اعتقاد جمهور الاثنى عشرية أن الإمام لا يموت إلا شهيداً. وهو مسلك يتميز به المؤرخون الدعاة في الغالب ويتحاشاه المؤرخون المحترفون. ولذا نجد خبر تسميم الإمامين في «بحار الأنوار» للمجلسي وهو من كتب الدعاة، ولأنجده في «تاريخ يعقوبي» وهو من مصادر التاريخ العام رغم أن مؤلفي كلا الكتابين هما من الشيعة الاثنى عشرية.



قبل أن ننتقل إلى الكلام عن الاغتيالات التي قامت بها المعارضة نود التنويه بأن وسيلة الاغتيال التي استعملتها السلطة في الخلافة الأموية قد اقتصرت على السم كما هو واضح من المخططات التي وصفناها. ويرجع هذا إلى أن الشخصيات التي طالتها الاغتيالات كانت لها مكانة في الأسرة الحاكمة أو في المجتمع تمنع من تصفيتها علناً. والاغتيال بالسلاح قد يعرض الخطة للانكشاف بالقبض على القاتل. وقد وفر السم الذي كان يحضرّ كما قلت آنفًا بطريقة متقدة غطاء للخطط ساعد كثيراً على إخفائها، مما ساعد بدوره على الب lille والاختلاف الذي يجده المرء وهو يجوس خلال المصادر ليتعرف على مصير أولئك الناس.

الاغتيال من جانب المعارضة

كانت المعارضة الإسلامية للأمويين تتألف من الشيعة والخوارج والقدرية وجمهور الفقهاء والمتكلمين - مثقفي ذلك الوقت. وقد سلكت المعارضة بجميع أطرافها سبيل العملسلح. وكان الأسلوب الغالب هو أسلوب الانتفاضات المسلحة ومن أبرزها انتفاضة الحسين في كربلاء، والختار في الكوفة، وزيد بن علي في الكوفة، وولده يحيى في جرجان، وابن الأشعث في العراق والمشرق والقدرية في الشام، والحارث بن سريج في خراسان.

وقد تخصص الخوارج دون غيرهم بأسلوب قريب من حرب العصابات يعتمد على القواعد المتحركة والهجمات الخاطفة التي تقوم بها مجموعات صغيرة. وبحكم اتباعهم لهذا الأسلوب، كان من المتوقع للخوارج أن يتبعوا تكتيك الاغتيال، الذي يعتمد في المعترك على الضربات المباغطة والانسحاب السريع. وقد انفرد الخوارج بهذا

التكتيك، إذ لم تحدث أية عملية مماثلة في هذه الحقبة على يد الشيعة أو القدرة أو المثقفين الذين أيّدوا العمل المسلح وشاركوا فيه. والفرق في تقديرني يرجع إلى نهج الانتفاضات الذي اتبعته هذه الأطراف وليس إلى اعتبارات أخلاقية، لأنّ الخوارج لم يكونوا في الواقع أقلّ تمسكاً بقواعد الأخلاق المرعية في المجتمع العربي / الإسلامي لذلك الوقت من قرناً لهم في جبهة المعارضة. وما له دلالته هنا أنّ الخوارج تجنبوا استعمال السُّم في اغتيالاتهم واقتصرتْ على الاغتيال بالسلاح، مكرسين بذلك نهج القوى المعارضة التي تقاتل من أجل قضية تراها عادلة ضد سلطة ظالمة، حيث تغلب سيكولوجية الشجاعة المقتربة بأخلاقيات العنف الثوري على سيكولوجية الغدر المقتربة بأخلاقيات العنف القمعي، بما يرسم خطأً فارقاً بين اغتيالات الأميين وأغتيالات الخوارج.

تميزت خطط الاغتيال الخارجية بدقة التكتيك ونفذت بروح فدائمة عالية. وقد وجهت حصاراً ضدّ أعيان السلطة دون أطراف المعارضة الأخرى التي كان الخوارج على خلاف شديد معها (لم يحدث اقتتال بين هذه الأطراف طوال الخلافة الأموية واقتصر الخصم بينها على الميدان النظري والإعلامي). وكان المستهدف بالاغتيال من بين أعيان السلطة من قام منهم بأعمال قمع ضد الفرقة، فاتخذت الاغتيالات لذلك شكل الرد، الفوري غالباً، بقصد الانتقام والتآديب. وقد أعطت بعض المفعول حين جعلت هؤلاء يحجمون أحياناً عن تنفيذ المهام الموكلة إليهم ضدّ الخوارج تحسباً من الرد. وفي «أنساب الأشراف» للبلاذري أنّ عبيداً الله بن زياد، حاكم العراق لعاوية وابنه يزيد، أعرب عن حيرته أمام الخوارج لأنّه كلما أمر بقتل رجل منهم أغتالوا قاتله. ولم تستعمل الاغتيالات لتحقيق

الوثوب إلى السلطة بتوجيهها ضد الخلفاء، ربما لعاملين: الأول صعوبة تفويتها مع الخليفة، العائش خلف أسوار الحماية الحديدية، والثاني لأن قتل الخليفة لا يترتب عليه انهيار حكم الأسرة نظراً لوجود الوريث جاهزاً للاستلام بعد موت أبي الخليفة. ومثل هذا الهدف كما لا يخفى يمكن إنجازه بالاغتيال في حالة حكم الفرد دون حكم الأسرة. فيما يلي وصف لبعض ما وقفتنا عليه من عمليات الاغتيال الخارجية مأخذود في الأساس من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحميد ..

اغتيال جلاد:

أسر عبيد الله بن زياد خارجياً فأمر بإخراجه إلى أحد ميادين المدينة لإعدامه علينا. لكن أفراد الشرطة تحاموا قتله لأنه كما تذكر الرواية كان متقدشاً عليه أثر العبادة، وفي الحقيقة لخوفهم من الانتقام على يد أصحابه. فلم يجد ابن زياد من يقبل هذه المهمة غير رجل يدعى المثلث بن مشرح الباجلي. ولم تخربنا الرواية بصفة هذا الرجل، لكننا نستطيع أن نستشف من اسمه الذي يبدو أنه لقب، أنه كان جلاداً محترفاً شديداً في السطوة.. ووضع الخوارج خطة لقتله مقابل أصحابهم. وكان هذا الرجل مولعاً باللقالح (النوق الغزيرة للبن) فكان يتبعها في أماكنها ليشتريها. فدس الخوارج إليه شاباً منهم تذكر في ذي الفتيان وعليه قميص مزعرف مما يلبسه المتعمون. وقد لقيه الشاب في المريد - بالبصرة - وهو يسأل عن لقحة يزيد شراءها. فقال له إن كنت راغباً في ذلك فعندي مايفنيك عن غيره فتعال معي. فسار معه المثلث على فرسه والفتى يسير أمامه راجلاً حتى وصل إلى منزل في أحد أحياط المدينة، فدخله الفتى وقال له ادخل على فرسك. فلما دخل وتوغل في الدار أغلق الباب من ورائه وباغته رجالان من

الخوارج فقتلاه. وبعد قتله شقوا بطنه ووضعوا في داخلها دراهم كان يحملها معه. ولم تتبين غرضهم من ذلك. ثم دفونه في نفس الدار وحکوا آثار الدم لإخفاء أثر العملية. وانتظروا حتى يأتي الليل فسيبوا فرسه، فأصبحت في الغد وهي في الاستبل دون أن يعرف أحد من أين جاءت^(٢٤).

اغتيال قائد عسكري :

كان أبو بلال مردارس بن عمرو من وجوه الخوارج في الكوفة، وكان في بداية أمره من القعدة، الذين لا يشاركون في العمل المسلح، وبقي على ذلك وقتاً كان يزاول فيه نشاطاً سرياً ضد ولاة الكوفة الأمويين. ثم اكتشف أن هؤلاء لا يجدي معهم إلا السلاح. فخرج من الكوفة مع جموع الخوارج وأعلن العصيان على حاكمها آنذاك عبيد الله بن زياد. فأرسل إليه الأخير جيشاً بقيادة رجل يدعى عباد بن أخضر. وكان أتباع مردارس قليلين فاشتبكوا مع الجيش في معركة غير متكافئة انتهت بقتلهم جميعاً بما فيهم مردارس.

حصل عباد بن أخضر على مكافآت جمة من سيده لقاء هذه الخدمة، وصارت له وجاهة في البلد، وبيدو أن الخوارج تريثوا حتى يمضي وقت كافي لنسيان قضية مردارس لكي يتراخي المطلوب في إجراءات التحفظ. وعندما دبروا خطتهم.

في أحد أيام الجمع كان عباد في طريقه إلى قصر الإمارة، أو إلى الجامع للصلوة، وكان يركب بغلة وقد أردد معه ابنه. فتقدم منه رجل ضمن جماعة واستوقفه ليستفتيه، فوقف فقال له الرجل:

رجل قتل رجلاً بغير حق. وللقاتل جاه وقدر عند السلطان

. ٤٥٠ / ١٦) ٢٤(

ولم يقبل السلطان شكوى ولـي القتيل لجوره. هل يجوز للولي
أن يقتل القاتل إذا قدر عليه؟

قال عباد: كلا بل يرفعه إلى السلطان.

قال خارجي: إن السلطان لا يقبل شكواه لمكانة القاتل عنده
وعظم جاهه.

قال عباد: أخاف عليه إن فتك به من السلطان.

قال خارجي: دع ماتخافه من السلطان. اتـلـحـقـهـ تـبـعـةـ فيـماـ
بيـنـهـ وـبـيـنـ اللـهـ؟

فقال عباد: لا!

وهـنـاـ هـتـفـ الرـجـلـ وـجـمـاعـتـهـ بـشـعـارـ «ـلـاحـكـمـ إـلـاـ اللـهــ».ـ وـهـوـ
شـعـارـ الـخـوـارـجـ الـذـيـ يـهـتـفـونـ بـهـ حـينـ يـقـومـونـ بـعـمـلـ مـاـ ثـمـ
خـبـطـوـهـ بـأـسـيـافـهـ حـتـىـ أـجـزـوـاـ عـلـيـهـ.ـ وـلـمـ يـقـتـلـوـ اـبـنـهـ (٢٥ـ).

اغتيال قائد آخر:

قام الخوارج بآخر وأكبر تحرك لهم ضد الأمويين في خلافة مروان، آخر خلفائهم. وقد أخذ هذا التحرك شكل انتفاضة واسعة شملت اليمـنـ بما فيها حضرموت وامتدت إلى الحجاز. وكانت بقيادة الخارجي الملقب طالب الحق وصاحب أبو حمزة. فعن مروان لإخماد الانتفاضة قائداً يـكـنـىـ أـبـوـ عـطـيـةـ وأـرـسـلـهـ عـلـىـ رـأـسـ جـيـشـ كـثـيـفـ فـاحتـلـ مـكـةـ وـالـدـيـنـ وـقـضـىـ عـلـىـ الـخـوـارـجـ الـذـيـنـ كـانـوـاـ فـيـهاـ بـقـيـادـةـ أـبـوـ حـمـزةـ.ـ وقد قـتـلـ أـبـوـ حـمـزةـ فـيـ المـارـكـ الـتـيـ خـاطـصـهـ ضـدـ الجـيـشـ الـأـمـوـيـ معـ جـمـعـ كـبـيرـهـ أـبـوـ عـطـيـةـ وـاستـسـلـمـ مـنـ تـبـقـىـ مـنـهـ وـعـدـدـهـ أـرـبـعـمـئـةـ مـقـاتـلـ فـأـعـدـهـمـ أـبـوـ عـطـيـةـ جـمـيعـاـ.ـ ثـمـ اـتـجـهـ المـذـكـورـ إـلـىـ الـيـمـنـ فـهـاجـمـهـ وـسـحـقـ حـرـكـةـ طـالـبـ الـحـقـ وـأـبـادـ مـنـ مـعـهـ فـيـ الـخـوـارـجـ.ـ وـأـقـامـ بـعـدـ الفـرـاغـ

(٢٥ـ) مـ /٤٥٣ـ - ٤٥٤ـ .ـ أـيـضاـ :ـ الطـبـريـ /٤ـ :ـ ٣٦١ـ .ـ

من مهمته في حضرموت. لكنه لم يلبث هناك طويلاً. ففي موسم الحج من نفس السنة، استدعاه مروان لينوب عنه في إمرة الحج تكريماً له على خدماته. فخرج مسرعاً ومعه تسعه عشر فارساً. وكان الخوارج يترصدونه في هذه الأثناء. فنصبوا له كميناً في طريقه إلى مكة. وعند اقترابه من الكمين خرجن عليه وقتلوه مع حراسه التسعة عشر. ويصف ابن أبي الحديدي مقتله على الوجه التالي: كان الكمين بقيادة أخيه من كندة فبارزه أحدهما فضربه بسيفه ضربة كادت تقضي عليه، لو لا أن عاجله الأخ الآخر فطعنه برمحة فصرعه.. ونزل إليه الأول وقعد على صدره. فقال له أبو عطيه يستعطفه: هل لك في أن تكون أكرم العرب أسيراً؟ فرد عليه: ياعدو الله أتظن الله بملك أو تطمئن في الحياة وقد قتلت طالب الحق وأبا حمزة؟ ثم ذبحه ذبحاً^(٢٦).

استمر الخوارج في استخدام هذا التكتيك في الخلافة العباسية، ولكن بوتيرة أقل. ومن ضرياتهم المشهودة آنذاك اغتيالهم معن بن زائدة أحد كبار القواد المخضرمين. وسننصل كيفية ذلك في الفصل الآتي.





الفصل الرابع

في العصر العباسي

يشمل العصر العباسي المدة الكائنة ما بين ١٢٢ هـ و ٦٥٦ هـ. والمصطلح غير دقيق إذا أريد به مطابقة هذه المدة مع السلطة العباسية في امتدادها الجغرافي لأنها لم تكن شاملة منذ البداية حيث انفصلت الأندلس، ثم تلتها أقاليم أخرى بالتتابع، حتى لم يبق في غضون القرن الأخير من هذا العصر ما يصدق عليه وصف عباسي غير جزء صغير من العراق. وقد تخللت هذا العصر كيانات سياسية لم تعرف بالعباسيين، أعظمها شأنًا الحكم الأموي في الأندلس والخلافة الفاطمية في شمال أفريقيا. لكن مصطلح عصر عباسي صار يطلق على مجمل هذه المدة بصرف النظر عن مسميات الدول فيه لاعتبارات عديدة أهمها عندي توفير إطار زمني موحد لتسهيل دراسة الحضارة الإسلامية التي بلغت أوج فاعليتها خلال المدة المذكورة. وعلى هذا الأساس وضعنا عنوان هذا القسم دون أن أقصد مفهومه الحرفي بالتحديد.

حدثت الاغتيالات في هذا العصر على نطاق أوسع من ذي قبل. مارستها السلطة متمثلة في الخليفة العباسي أم في المنقلبين عليه أم في حكام الأسر الأخرى، ومارستها المعارضة متمثلة أولاً في الخارج، ثم في الاسماعيلية التي استلمت هذا القليل من الخارج ومشت فيه إلى المدى الأبعد. واستعملت السلطة في اغتيالاتها السُّم، لكنها لم تقتصر عليه وإنما لجأت أيضاً إلى الفتك بالسلاح باستخدام مأجورين. وكان الاغتيال بالنسبة إلى السلطة وسيلة للتخلص من أشخاص لا يمكن المجاهرة بإعدامهم بسب مكانتهم السياسية أو الاجتماعية أو الدينية، أو بسبب وجودهم خارج نفوذ السلطة، وبالنسبة للمعارضة كان الاغتيال وسيلة لتوجيه ضربات مدروسة ضد الحاكم أو أعوانه الكبار.

نظراً لطول وتشعب هذا العصر وتعقد الأحداث فيه، لامجال لحصر الاغتيالات بالشكل الذي حاولناه في الأقسام الثلاثة الأولى وستقتصر دراستنا على حوادث منتقاة، إما لأهمية نتائجها أو لخطورة عنصر التنفيذ فيها.

على يد السلطة

اغتيال ادريس بن عبد الله:

من أحفاد الحسن بن علي. كان قد اشتراك في تمرد قاده أحد أبناء عمه بالحجاز في خلافة موسى الهايدي، أخ الرشيد، وهو التمرد المعروف بوقعة فتح. وبعد سحق التمرد هرب ادريس إلى مصر ومن هناك واصل سيره حتى المغرب الأقصى، حيث بدأ بتنظيم حركة ناجحة ضد العباسيين انتهت إلى إقامة أول دولة علوية في أفريقيا.

وكانت حركة ادريس ثانٍ حركة انفصالية خطيرة ضد الخلافة العباسية بعد انفصال الأندلس بزعامة عبد الرحمن الداخل. وقد أرقت هارون الرشيد، الذي استلم بعد أخيه الهادي، القصير المدة. لكن الرشيد ارتى عدم أفضلية استخدام القوة العسكرية، ربما لبعد المكان، أو لاعتبار آخر فكر فيه، فلجأ إلى المكيدة لضرب ادريس وحركته.

يتفق معظم المؤرخين على أن ادريس مات مسموماً وعلى أن الرشيد دس إليه رجلاً استغفله حتى سمه. لكنهم يختلفون في اسم الرجل وكيفية أدائه لمهمته. وتقول رواية لأبو الفرج الأصفهاني^(١) إن هذا الرجل كان من الزيدية، وهو مذهب ادريس نفسه، وأن يحيى البرمكي رغبه وأغراه لاغتيال ادريس. واسم الرجل في هذه الرواية هو سليمان بن جرير الجزي. وهو مشابه لاسم متكلم زيدي يدعى سليمان بن جرير الرقي، والرقه كانت من أعمال الجزيرة. ومن المستبعد أن يكون هو الفاعل لأنه كان من أعلام الزيدية المناهضين لبني العباس، كما كان من كبار متكلميهم ورؤساً لشعبة منهم تسمى الجريرية. ولعل رواية أبو الفرج قد وقع في اشتباه ناتج عن تقارب الأسمين. وقد ورد الاسم عند ابن خلدون^(٢) هكذا: سليمان بن حريز ويعرف بالشماخ. فربما تصحفت حريز إلى جرير. أما الشماخ فهو اللقب الذي تتفق معظم الروايات على تقبيل الفاعل به. وهو ليس لقب سليمان الرقي. وينبغي مع هذا أن لانستبعد أن يكون الرشيد أو كبير وزرائه قد اختار رجلاً زيدياً لهذه المهمة حتى يمكنه استدرج ادريس للمكيدة. وتذكر رواية أخرى لأبو الفرج وردت أيضاً عند الطبرى^(٢) وابن خلدون أن الشماخ كان طيباً وأظهر أنه من الشيعة.

(١) مقاتل الطالبيين . القاهرة ١٩٤٩ من ٤٨٩ الفصل المخصص لأدريس بن عبد الله .

(٢) التاريخ ١٢/٤ الفصل الخاص بالأدارسة .

(٢) التاريخ حوادث ١٦٩ - أخبار الحسين بن علي صاحب فتح اغتيل ادريس سنة ١٧٥ لكن الطبرى ساق قصته استطراداً من قصة التمرد الذي شارك فيه .

أما كيفية تفيد الخطة فيستفاد من مجمل الروايات أن الرجل المذكور التحق بادريس متظاهراً أنه من أنصاره وأنه ساخت على العباسيين. ومن المحتمل جداً أن ادريس صدقه لكونه شيئاًً. وقد أنس به وجعله من جملة خواصه. ثم حدث أن اشتكي ادريس وجعاً في أسنانه فأعطاه مساواكاً مسماوماً ونصحه أن يستاك به عند طلوع الفجر. وهرب الرجل في نفس الليلة. وعند الفجر استيقظ ادريس وأخذ المساواك فجعل يننظف به أسنانه، ويفترض أنه كان قد بَيِّن له أن في المساواك مادة علاجية، فتسرب السم إلى جسده وقضى عليه. وقد وردت عن ابن خلدون عبارة تشكك في هذه الرواية. ولعل ذلك لأنه استصعب أن يكون المساواك المسموم سبباً في الموت، فمثل هذه الحالات من التسمم كانت ميسورة العلاج بالمضادات التراثية آنذاك. وقد جاء في رواية أخرى لأبو الفرج أن الشماخ قدم إليه سمكة مشوية مسمومة. وهو ما يرد أيضاً عن ابن حبيب الذي يسبق أبو الفرج بنحو القرن^(٤). وفي رواية غيرها لأبو الفرج أنه قدم إليه عطراً مسماوماً فقتله بعد أن شمه وتعطر به. وقد تكون هذه الوسائل أفتک من المساواك.

مهما يكن الخلاف حول كيفية التسميم فقد مات ادريس وكافأ الرشيد مفتاله بتعيينه موظفاً كبيراً في مصر. وكانت لإدريس جارية حامل منه فانتظرها أعنوانه حتى ولدت ولداً سموه ادريس وتعهدوه ليكون وريثاً لوالده. واستمروا في هذه الأثناء يدبرون شؤون الدولة حتى بلغ الوريث سن الرشد. وقد استطاعوا بذلك صيانة دولة الأدارسة من السقوط فلم يتحقق للرشيد الهدف الذي كان يتوكأه من اغتيال مؤسسها.

(٤) انظر : «أسماء المغتالين من الأشراف» سلسلة : نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة . ١٩٥٤ ، ص ١٩٨ .

تصفيية الوزير ثم ولی العهد :

بعد أن انفرد المأمون بالخلافة بمقتل أخيه الأمين، وكان مقیماً حينذاك في خراسان، استدعاى علي الرضا بن موسى الكاظم، وهو الإمام الثامن في سلسلة الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، وقرر تعینه ولیاً للعهد، في حركة درامية كيّة أراد أن ينقل بها الخلافة من بني العباس إلى آل البيت. وقد تم ذلك خلافاً لرغبة الإمام الشيعي الذي قبل الخطة، مكرهاً، رغم أنه كان من المطالبين بالخلافة. ولعل السبب هو عدم تيقنه من قدرة المأمون على فرض خطته على أسرته العباسية ذات النفوذ القوي، أو عدم اطمئنانه إلى جدية الخطة. وقد سبب هذا الإجراء تمرداً في بغداد قاده عم المأمون ابراهيم بن المھدی، وتم فيه خلع المأمون ومبایعه ابراهيم بالخلافة. وكانت أخبار التمرد تصل إلى وزيره الفضل بن سهل فيكتمها عنه، وكأنه كان يتوق إلى معالجة الأوضاع بنفسه قبل أن ينتبه إليها المأمون، لأن الوزير كان من أهداف المتمردين وأحد الأسباب التي دعتهم إلى العصيان. لكن الأمور تفاقمت وخرجت من يد الوزير فاضطرب علي الرضا إلى مکاشفة الخليفة بتفاصيل ما يجري في بغداد وبين له أن العباسيين وأنصارهم في بغداد قد خرجوا على طاعته بسب ولاية العهد وأن الفضل يستر عنه الأخبار ويتصرف باسمه في أمور سبب المزيد من القلاقل وعرضت سلطنته للخطر. وكان علي ملتزماً بعدم غش المأمون، جرياً على أخلاقيات متوارثة لدى أئمة أهل البيت. قرر المأمون على الأثر أن يتوجه إلى بغداد لتدارك الأوضاع. وفي مدينة سرخس كان الفضل بن سهل، الذي رافق الخليفة في عودته، يغتسل في حمام فشد عليه جماعة وتناولوه بسيوفهم فأردوه قتيلاً. وكان المهاجمون من حشم المأمون، فأمر بالبحث عنهم وجعل من جاء بهم عشرة آلاف دینار، فلما مثلوا أمامه

قالوا : «أنت أمرتنا بقتله». فأمر بإعدامهم وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل، شقيق الفضل، وكان معتمد المؤمن في واسط^(٥). وقد ورد قتل الفضل في الحمام في مصادر أخرى لم ينص بعضها على تورط المؤمن. فابن العماد يقول إن الاغتيال كان بإيعاز من خال المؤمن^(٦). بينما أوردها اليعقوبي بعبارات لا يفهم منها إن كان القتل من المؤمن أو تصرفًا كييفياً من القتلة^(٧). ورواه الخطيب البغدادي^(٨)، بطريقة لا تُشعر بعلاقة المؤمن بها. بينما صرَّح ابن حبيب^(٩) أن المؤمن دس غالب الرومي، وهو مولاه، فقتله في الحمام وأنه قُبض عليه فقتله وقتل معه أربعة آخرين من الحشم.

لسنا بحاجة إلى مجارة المؤرخين الذين يتحرجون أحياناً من توريط الخلفاء في المكاييد، فقد كان المؤمن في أمس الحاجة لإنتهاء الفضل بن سهل الذي كان أحد أخطر عقبتين في طريق تسوية الفتنة ببغداد. وصرَّاخ القتلة حين قدموا للإعدام لابس فيه، فالمؤمن هو الذي أمر بقتل وزيره، وحتى لو لم يصرخوا لكان علينا أن نفهم سر الاغتيال: فالفضل يجب أن يذهب ثمناً لعرش الخليفة. وقد يتساءل القارئ: أما كان بمقدور الخليفة أن يقتل الفضل علناً وهو شيء مأثور عند الخلفاء بعد الراشدين؟ أو يعزله على الأقل؟ وأجيب أن الفضل كان له أعونان مستعدون للتمرد لو قتل صاحبهما بأمر الخليفة، وأن له كذلك أخاً متوفداً لم يكن ليُسكنَتْ لو حدث هذا لأخيه. أما عزله فقد كان محتملاً أن يدفعه إلى القيام بنشاط مناوئ مستفيداً من كثرة

(٥) الطري . حوادث ٢٠٢ هـ .

- ابن الأثير ، حوادث نفس السنة

(٦) انظر شذرات الذهب حوادث سنة ٢٠٢ هـ .

(٧) التاريخ ١٨٠ / ٣ ط النجف ١٤٥٨ هـ حوادث ٢٠٢ . نص العبارات : لما صار المؤمن بقُويس قتل الفضل بن سهل في الحمام دخل عليه غالب الرومي وسراجه الخادم فقتلهمَا المؤمن وقتل قوماً معهما .

(٨) تاريخ بغداد . القاهرة ٩٣١ م ٢٤٢ / ١٢ الترجمة ٧٧٨٤ .

(٩) مصدر سابق . ص ١٩٨ .

أعوانه وإخلاصهم له. وقد جاء الاغتيال حلاً لهذه الارتكاسات الممكنة حينئذ. ومما له دلالة هامة هنا أن يبعث المؤمن برؤوس القتلة إلى الحسن شقيق الفضل مشفوعة بكتاب يرثي فيه المغدور ويبكيه ويخبر الشقيق أنه قد صيره مكان شقيقه... سياسي بارع من طراز معاوية ورجل دولة دقيق الحساب.

بعد قتل الفضل في سرّه، واصل المؤمن سيره إلى بغداد فنزل في طريقه بمدينة طوس ليقيم أياماً عند ضريح والده الرشيد. وهناك مات ولـي العهد فجأة.. وميـة هذا الرجل محيرة: فالكثير من المصادر المعتمدة لا تتصـ على سبب قاطع يـدـ الـاغـتـيـالـ لـكـنـهـ أـفـادـتـ أـنـهـ أـكـلـ عـنـباـ فـأـكـلـ مـنـهـ فـمـاتـ،ـ وـكـانـ فـيـمـاـ يـقـالـ مـشـفـوـفاـ بـأـكـلـ العـنـبـ (١٠)،ـ وـالـإـكـثـارـ مـنـ أـكـلـ العـنـبـ لـأـيـمـيـتـ إـنـمـاـ قـدـ يـحـدـثـ اـرـتـبـاكـاتـ هـضـمـيـةـ فـيـ أـسـوـاـ الـأـحـوـالـ.ـ وـتـصـ رـوـاـيـاتـ أـخـرىـ عـلـىـ أـنـ العـنـبـ كـانـ مـسـمـوـاـ،ـ وـهـيـ الـقـنـاعـةـ التـيـ يـبـدـوـ أـنـ أـبـوـ الـفـرـجـ قـدـ تـوـصـلـ إـلـيـهـ.ـ وـقـدـ أـورـدـ فـيـ ذـلـكـ رـوـاـيـتـيـنـ تـقـولـ إـحـدـاهـماـ إـنـ الـمـؤـمـنـ أـمـرـ أـحـدـ أـعـوـانـهـ الـمـسـمـيـ عـبـدـ اللهـ بـنـ بـشـيرـ أـنـ يـطـوـلـ أـظـفـارـهـ ثـمـ أـخـرـجـ إـلـيـهـ شـيـئـاـ يـشـبـهـ التـمـ الـهـنـديـ وـقـالـ لـهـ اـفـرـكـهـ وـاعـجـنـهـ بـيـدـيـكـ جـمـيـعـاـ،ـ فـفـعـلـ.ـ ثـمـ دـخـلـ عـلـىـ الرـضـاـ وـكـانـ قـدـ اـعـتـلـ فـسـأـلـهـ عـنـ حـالـهـ ثـمـ قـالـ لـهـ:ـ هـلـ جـاءـكـ أـحـدـ مـنـ الـمـتـرـفـقـينـ الـيـوـمـ (يـقـصـدـ الـمـرـضـيـنـ وـالـعـتـيـنـ بـالـمـرـضـ)ـ فـقـالـ لـهـ:ـ لـاـ.ـ فـغـضـبـ الـمـؤـمـنـ وـصـاحـ عـلـىـ غـلـمانـهـ.ـ ثـمـ قـالـ لـهـ:ـ خـذـ مـاءـ الرـمـانـ الـيـوـمـ فـإـنـهـ لـاـيـسـتـفـنـ عـنـهـ.ـ وـدـعـاـ بـرـمـانـ فـأـعـطـاهـ عـبـدـ اللهـ بـنـ بـشـيرـ وـقـالـ لـهـ:ـ اـعـصـرـ مـاءـ بـيـدـيـكـ.ـ فـفـعـلـ وـسـقـاهـ الرـضـاـ بـيـدـهـ فـشـرـبـ،ـ وـمـاتـ بـعـدـ يـوـمـيـنـ.ـ وـفـيـ الـرـوـاـيـةـ الـأـخـرىـ يـرـدـ ذـكـرـ العـنـبـ وـأـنـ الرـضـاـ كـانـ مـوـلـعاـ بـأـكـلـهـ فـأـخـذـ لـهـ عـنـبـ وـغـرـسـ الـأـبـرـ فـيـ أـقـمـاعـهـ.ـ وـتـرـكـ أـيـامـ ثـمـ قـدـمـ لـهـ فـأـكـلـ مـنـهـ،ـ وـكـانـ

(١٠) الطبرى - التاريخ . ابن كثير - البداية والنهاية ، حدث ٢٠٢ هـ . ابن خلدون / ٢٥٠ . ابن خلkan الترجمة المسعودي ج ٤ / ٢٨ من ط - محى الدين عبد الحميد الخامسة ، القاهرة ١٩٧٢ (باب ذكر أيام المؤمن) .

مريضاً، فقتله. وتضييف هذه الرواية أن ذلك كان من لطيف السّموم^(١١).

وفي الروايتين ما يدعو إلى عدم الثقة بهما؛ ففي الأولى يجري التسميم بحضور الخليفة حيث يعصر أحد الأعوان رماناً بيده بعد أن طول أظفاره وأشبعها سماً. ومثل هذه الطريقة في تحضير الأشربة والأطعمة غير مألوفة في دور الأباطرة التي يعد كل شيء فيها سلفاً ويقدمه خدم متخصصون في أواني وكؤوس مخصوصة وبطريقة مخصوصة أيضاً. وسيكون من الشذوذ المثير للشك أن يعصر الرمان بحضور الخليفة وولي عهده. أما في الرواية الثانية فإن ترك العنب أياماً وفيه الإبر لابد أن يفسده، وكان الرضا - مثل سائر أهل بيته - متحرياً للنظافة وله معرفة جيدة بالطب، فهو لا يستسيغ أكل طعام فيه علامة فساد، مع إمكانية توفر أفضل الأصناف له.

وقد أشار اليعقوبي^(١٢) إلى مسألة التسميم بالرمان دون أن يجزم بصحتها. بينما ذكر ابن العماد أنه مات بالحمى أو بالسم^(١٣). والترجح الأول يعزز ما ورد في في بعض الروايات من أنه كان عليه قبل أن يدس إليه السم.

واستعرض المحقق الشيعي محسن الأمين قضية موت الرضا فجزم بأنه مات مسموماً، لكنه أورد عن علماء شيعة كبار شكهم في ذلك. وقد لاحظ أن الكليني لم يتطرق إلى اغتياله، والكليني من أقدم مؤرخي الشيعة. ونقل الأمين كذلك عن «كشف الغمة» أن السيد رضي الدين علي بن طاووس - من مراجع الشيعة في القرن السابع- كان لا يوافق على أن المؤمنون سُمِّ الرضا ولا يعتقدونه. وكان كثير المطالعة والتقيب والتفتيش عن مثل ذلك. وعزز ابن طاووس قناعته بما كان

(١١) مقاتل الطالبين . ص ٥٦٦ - ٥٦٧ الفصل المخصص لعلي بن موسى .

(١٢) التاريخ ١٨٠ / ٣ حوادث ٢٠٢ هـ .

(١٣) مصدر سابق . حوادث ٢٠٢ هـ .

يظهر من المؤمن من الحنو على الرضا والميل إليه و اختياره له دون أهله وأولاده^(١٤).

وقد استبعد ابن الأثير رواية العنبر المسموم^(١٥). ورأى ابن الأثير جديراً بالاعتبار لأنَّه مؤرخ رصين وقلما يتحيز فيما لا يتعلّق بمعاصريه. وترددت أصوات اغتيال الرضا في الشعر، في قصيدة باكية لد عبد الخزاعي وهو معاصر للرضا عبر عن حيرته بشأن الموت المفاجئ لإمامه ولو أنه مال فيما بعد إلى تأكيد الاغتيال حين صب غضبه ولعاته علىبني العباس:

شكـت فـما أدرـي أـمسـقـي بـشـرـيـة؟ فـابـكـيـكـ اـمـ رـيبـ الرـدـيـ فـيـهـونـ
وـاـيـهـمـاـ ماـقـلـتـ إـنـ قـلـتـ شـرـيـةـ وـانـ قـلـتـ مـوتـ اـنـهـ لـهـ مـيـنـ
أـيـاعـجـباـ مـنـهـمـ يـسـمـونـكـ الرـضاـ وـتـلـقـاكـ مـنـهـمـ كـلـحـةـ وـغـضـونـ

لكن أبو فراس الحمداني جزم بالاغتيال إذ قال في قصidته التي هاجم فيها العباسيين ودافع عن آل البيت:
«باءوا بقتل الرضا من بعد بيعته».

وأبو فراس من أبناء القرن الرابع. ولعله يرد هنا ما شاع بين الناس، لاسيما الشيعة.

يستبين من مجلمل ما استعرضناه أن تسميم الرضا غير متفق عليه. لكن ميّة مفاجئة كهذه وفي وقت كان المؤمنون محتاجاً إليها لابد أن تثير شكوكاً جديدة. وأنا أميل، دون أن أستيقن، إلى وجود خطة اغتيال، لاسيما وأننا لانملك دليلاً على إصابة الرضا بمرض قاتل سوى الحمى التي لم يذكر لها المؤرخون مضاعفات أو أعراضًا خطيرة. فضلاً عن أنه حين مات كان بين الرابعة والأربعين والخمسين، تبعاً

(١٤) أعيان الشيعة /٢٠٣ ترجمة علي بن موسى الرضا ط - بيروت ١٩٨٢ .

(١٥) الكامل في التاريخ . حوادث سنة ٤٠٢ .

لاختلاف الأقوال في عمره، وفي مثل هذا السن لايموت الانسان إلا بعلة واضحة. وكان المأمون قد كتب فور وفاته إلى العباسيين الغاضبين في بغداد يخبرهم (ببشرهم) بأن الرجل قد مات وأنه عاد إلى لبس السواد شعار العباسيين الذي كان قد خلعه ولبس الخضراء شعار العلوين. وانتهت بذلك قصة ولادة العهد التي فجرت الأزمة.. أتى المأمون كان على موعد مع القدر المسارع له في هواه وهو يجتاز مدينة طوس متوجهاً لإخمام الفتنة في بغداد.

مقتل المتوكل:

قتل المتوكل بتدبير من ابنه المنتصر وحاشيته التركية. ولم تتضمن الخطة أية تعقييدات فقد باخته المسلحون وهم أنفسهم من أفراد القصر في حجرته وخبطوه بسيوفهم جهاراً ودون أية تكتيكات. وقد وضعنا الحديث على ملاك الاغتيال لأنه دبر في غفلة من المغدور ونفذ بالمباغة. وتعكس طريقة قتله روح التهور غير المحسوب لدى المتكلبين الأتراك. وكان واضحاً أن الابن يقف وراء المؤامرة، وهو ماجاهر به البحترى في مرثيته لولي نعمته:
أكان ولـيـ العـهـدـ أـضـمـرـ غـدرـةـ؟

والسبب الذي حمل الابن على الفدر بالأب أنه قدم عليه في ولادة العهد أخيه الأصغر. لكن ثمة ما هو أبعد من هذا السبب. فمقتل المتوكل ترتب عليه فقدان الخلافة العباسية سلطتها لحساب المتكلبين الأتراك، ومارافق ذلك من تفكك وحدة الدولة الإسلامية وظهور دوليات الطوائف. ومثل هذه التحولات الكبرى لاتنشأ من مجرد نزاع بين خليفة وابنه. وفي تقديرى أن المتكلبين الأتراك بعد أن اشتد بأسمهم في عهد المتوكل أخذوا يتأنبون للانقضاض على الخلافة وانتزاع السلطة الفعلية منها. وكان المتوكل قوياً مهيباً، والدولة في عهده لاتزال محتفظة بوحدتها وتكمالها المركزي. فلم يكن ميسوراً

لأحد أن يتطاول على سلطته، فدبروا خطة لاغتياله. وقد انتهزوا تأخير الابن الأكبر في عقد الولاية فاتخذوا منه أداة لتنفيذ المكيدة. وكان شاباً غرّاً ضعيفاً فانساق معهم. ولما قتل المتوكلا استخلف الابن بقوة الحاشية التركية خلافاً لعقد الولاية. وبهذا تمت للأتراء السيطرة على الخلافة العباسية بإزاحة آخر الخلفاء الأقوية.

اغتيال أبو سعيد الجنابي:

منشئ الحكم القرمطي في شرق الجزيرة العربية. قتله خادمه في الحمام. ولم يذكر سبب مباشر لقتله لكن ابن العماد^(١٦) يقول إنه راود الخادم في الحمام فاضطره إلى قتله. وهذا اتهام مندرج في عدد التشريعات التي روجها الإعلام السنوي ضد الباطنية ولم يعرف عن زعماء القرامطة مجون أو فجور يعذّب الشك في سلوكهم، إذا استثنينا الحسن الأعصم حفيض أبو سعيد الذي حكم بعده بستين عاماً وكان سيء السلوك والسياسة معاً ويسببه اضطرار القرامطة إلى إبعاد أسرة الجنابي عن الحكم. وتعطينا تفاصيل العملية دليلاً على أنها جرت خارج العلاقة المباشرة بين الخادم ومخدومه، لأنه بعد أن قتله استدعي رجلاً من كبار القادة وقال له: السيد يستدعيك. فلما دخل قتله. وفعل ذلك مع أربعة فلما دخل الخامس فطن للمكيدة وأمسك بالخادم وأخذ يصفع فتداعى الناس وقبضوا عليه. ويقودنا ذلك إلى أحد احتمالين: أن يكون الاغتيال قد وقع بداعٍ شخصيٍّ من خادم تجاه مخدومين، مع افتراض قد لا يكون بعيداً وهو أن يكون الخادم قد أصيب بلوثة مما يرتكس أحياناً في أعمال قتل جماعي يرتكبها المصابون بمثل هذه الحالة المرضية. الاحتمال الآخر أن يكون الاغتيال نتاج خطة مدبرة في بغداد - الخصم الأكبر للقرامطة. وهو احتمال

(١٦) شذرات الذهب حوادث سنة ٢٠١.

يعززه واقع الصراع الدموي بين العباسيين والقراطمة. يبقى أن ننوه بأن الاغتيال في الحمام قد تكرر ضد آخرين. وقد مر بنا قتل الفضل بن سهل في نفس المكان. ومن الأحداث الأخرى اغتيال مؤسس الأسرة الحمودية العلوية في الأندلس علي بن حمود، الذي قتله خدمه في الحمام أيضاً. والحمام مرفق أساسي في الحياة الإسلامية وله ترتيبات تقتضي الخدمة كإعداد وتقديم الملابس والمناشف وتقديم الماء في حالة انعدام تأسيسات المياه الداخلية وتدعيم المستحمام واستعمال مزييلات الشعر وتوفير أصناف من المشروبات والمأكولات ملائمة للاستحمام. وقد جعل ذلك من الحمام مصيدة للمستحمام لأنه يكون منفرداً فيه لمدة طويلة في المعتمد مع الخدم الذين يتولون خدمته في أثناء ذلك. والاستحمام يتكرر أسبوعياً على الأقل تبعاً لتعاليم النبي محمد.

لم تترتب نتائج خطيرة على اغتيال أبو سعيد فقد استلم بعده ولده الأصغر أبو طاهر الذي واصل سياسة والده وبلغ فيها إلى مدى أبعد مما بلغه الوالد نفسه.

اغتيال زعيم قرمطي آخر:

كانت الدعوة الإسلامية قد وصلت بجناحها الأكثر تطرفاً إلى اليمن في وقت مقارب لوصولها إلى المغرب. وقد تزعمها في اليمن علي بن الفضل الخنفري الذي تمكّن من إقامة كيان قرمطي على أنحاء واسعة من هذا البلد استمر بضعة عشر عاماً. وكان علي قد اصطدم في أثناء ذلك بعدد من القواد وأمراء الحرب اليمنيين فأنهى بعضهم وتساوم مع بعضهم الآخر فضمّهم إلى دولته. وكان من هؤلاء قائد متفذ يدعى أسعد بن أبي يعفر عيّنه علي بعد أن تصالح معه والياً على صنعاء. لكنه بقي يتحين الفرص لإلقاء القبض بالزعيم القرمطي لأنه كان

موالياً للعباسيين وعبرأً عن مصالح عشائرية وإقطاعية واسعة في اليمن. والظاهر أنه لم يستطع تدبير أمر ما من داخل اليمن لأن الفرصة لم تنسح له إلا بعد وصول رجل من العراق انتص إلىه في مسعاه للتخلص من علي بن الفضل. وقد ذكر صاحب «بلغ المرام» هذا الرجل بعبارة: «الشريف الواثل من العراق» وقال إنه كان معروفاً بالطبع. ويستفاد من وصفه بالشريف أنه كان علوياً. ويمكن أن يفهم من ذلك أنه اختير لهذه المهمة لأنه قد يكون أقدر من غيره على التوصل إلى علي بن الفضل بحكم علويته. والذي اختاره للقيام بهذا العمل لا يعود الخليفة العباسي أو المحكمين فيه من الأتراك. وكان الخليفة آنذاك هو المقتدر الذي اقتنى الصراع ضد الباطنية الأوائل باسمه. وتقول الرواية إن ابن أبي يعفر شجع هذا الرجل على أداء ماجاء من أجله وتعهد له أن يشاطره ماله (يعطيه نصفه). وعلى هذا الأساس، ذهب الرجل إلى المديخرة حيث يقيم علي بن الفضل. ولم يرددنا تفصيل عن كيفية وصوله إلى الزعيم القرمطي سوى عبارة في «بلغ المرام» تقول «إنه بقي هناك يتربّد» حتى استدعاء ابن الفضل ليقصد عرقاً له. ولاشك أنه لم يطلب هذا منه إلا بعد أن وثق به واطمأن إليه. وكان قد سقى مبعشه سماً وأعده لهذا اليوم. فلما قصد العرق التهب جسم علي فمات. وقد هرب الفاعل ولكنه أدرك فقتل.

أدى اغتيال علي بن الفضل إلى إضعاف الكيان القرمطي في اليمن. ومع أن السلطة أسندة بعده إلى ولده المسمى بالفأفأ فإن الكيان لم يصمد أمام هجوم موحد من بعض العشائر اليمنية بقيادة ابن أبي يعفر. وقد استطاع المذكور أن يبسط سلطانه على معظم اليمن ويعيدها إلى الخلافة العباسية^(١٧). ويمكننا الاستدلال من هذا على أن دولة علي بن الفضل في اليمن التي تأسست بقيادته قد ارتئن مصيرها

(١٧) «بلغ المرام» للقاضي حسين بن حمد العرضي . القاهرة ١٩٣٩ ص ٢٢ أيضاً «كشف أسرار الباطنية» لل yanani . القاهرة ١٩٣٩ . أخبار علي بن الفضل .

بقيادته أيضاً، فكانت مثلاً على كيان غير راسخ يزول بزوال مشيده. وقد لعب الاغتيال هنا دور العامل الحاسم الذي يتجاوز بنتائجها البعيدة المدى حجم ونطاق العملية نفسها.

سلطانة تركية تقتل أولادها:

زمرد خاتون زوجة السلطان السلاجوفي الب ارسلان تولى ابنها الأكبر تُّش السلطنة بعد وفاة والده فلم يعجبها فسماه في عنقود عنب. وقام بعده ابنها الآخر بوري فلم يعجبها فالحقته بأخيه وأجلست مكانه شهاب الدين بن بوري لكي تضمن لها التحكم في السلطنة.

على يد المعارضة

اتسعت حركة المعارضة في الخلافة العباسية مع تفاقم وتعقد الأزمات الاجتماعية في عموم المجتمع الإسلامي وحصلت في أثناء ذلك نبلات في موقع وفضائل الفرق المعارضة. فقد استمر الخارج من خلال تشعباتهم المعروفة وأسلوبهم المعتمد (حرب العصابات) لغاية النصف الثاني من القرن الثالث قبل أن يبدأوا انحساراً في الرقعة التي كانت تشملها نشاطاتهم ليتمركزوا في موقع نفوذ حصلت في أيديهم نتيجة انتفاضات مسلحة تجاوزوا بها أسلوبهم القتالي السابق. أما القدّرية فقد تطوروا حينئذ إلى المعتزلة وحافظوا على نهجهم المعارض إلى عهد المؤمن الذي تحالف معهم وجعل مذهبهم رسمياً للدولة. وقد اشتراك المعتزلة في أوائل العصر العباسي في حركة مسلحة كبرى قادها ابراهيم بن عبد الله الحسني في البصرة وكادت تقضي على الخلافة العباسية لحساب المعارضة الإسلامية. لكنها

فشلـتـ.ـولـمـيـظـهـرـلـلـمـعـتـزـلـةـنـشـاطـسـيـاسـيـهـامـبـعـدـهـذـهـالـحـرـكـةـ.ـوـبـقـيـ
الـفـقـهـاءـفـيـمـعـارـضـتـهـمـلـلـخـلـافـةـغـيـرـالـراـشـدـيـةـتـيـأـصـبـحـتـاـنـمـنـ
نصـبـالـعـبـاسـيـنـوـشـارـكـبعـضـهـمـفـيـحـرـكـتـيـابـرـاهـيمـوـأـخـيـهـمـحـمـدـ
الـذـيـاـسـتـولـىـعـلـىـالـمـدـنـيـةـفـيـعـهـدـالـمـنـصـورـلـكـنـمـعـارـضـتـهـمـأـخـذـتـفـيـ
الـتـرـاجـعـبـعـدـهـاتـيـنـالـحـرـكـتـيـنـلـاـسـيـماـفـيـسـاحـةـالـعـمـلـالـمـسـلـحـلـتـتـهـيـ
إـلـىـوـثـامـمـعـالـسـلـطـةـالـاسـلـامـيـةـتـبـلـوـرـفـيـغـضـونـالـقـرـنـالـرـابـعـوـمـنـ
الـشـيـعـةـظـهـرـتـالـزـيـدـيـةـبـنـشـاطـمـسـلـحـاـسـتـهـلـهـالـشـقـيقـيـقـانـابـرـاهـيمـوـمـحـمـدـ
ضـنـدـالـمـنـصـورـوـتـوـاـصـلـمـتـرـاـوـحـاـبـيـنـالـشـدـةـوـالـخـفـوتـحـتـاـنـطـفـاتـ
جـذـوـتـهـنـهـائـيـاـبـوـصـوـلـالـزـيـدـيـةـإـلـىـالـسـلـطـةـفـيـالـيـمـنـوـفـيـالـنـصـفـ
الـثـانـيـمـنـالـقـرـنـالـثـانـيـبـدـأـتـالـاسـمـاعـيـلـيـةـالـبـاطـنـيـةـنـشـاطـهـاـالـسـرـيـ
الـذـيـتـطـوـرـإـلـىـحـرـكـةـكـاسـسـةـغـطـتـالـعـالـمـالـاسـلـامـيـمـنـمـشـرقـهـإـلـىـ
مـغـرـيـهـوـكـانـتـوـسـيـلـتـهـاـالـضـارـبـةـفـيـمـرـحـلـةـالـظـهـورـهـيـالـعـمـلـالـمـسـلـحـ.
إـلـىـجـانـبـالـفـرـقـ،ـظـهـرـتـحـرـكـاتـمـسـلـحـةـأـخـذـتـشـكـلـاـنـتـفـاضـاتـ
فـيـأـمـاـكـنـمـعـيـنـةـوـعـلـىـيـدـقـيـادـاتـغـيـرـمـرـتـبـطـةـبـتـتـظـيمـفـرـقـكـانـمـنـ
أـعـظـمـهـاـشـأـنـاـأـنـتـفـاضـةـالـزـنـجـفـيـجـنـوبـالـعـرـاقـوـالـبـابـكـيـةـ(ـالـخـرـمـيـةـ)ـفـيـ
أـذـرـيـجـانـ.

مـنـبـيـنـالـحـرـكـاتـوـالـفـصـائـلـالـمـسـلـحـةـ،ـوـاـصـلـالـخـواـرـجـأـسـلـوبـ
الـاغـتـيـالـوـلـكـنـفـيـنـطـاقـضـيـقـ.ـوـالـعـمـلـيـةـالـهـامـةـتـيـقـامـواـبـهـاـفـيـهـذـاـ
الـمـرـحـلـةـهـيـاـغـتـيـالـقـائـدـالـبـارـزـالـمـخـضـرـمـمـعـنـبـنـزـائـدـةـ.ـوـسـنـصـفـهـبـعـدـ
قـلـيلـ.ـبـيـدـأـنـالـاسـمـاعـيـلـيـةـمـلـأـتـالـشـاغـرـذـيـتـرـكـهـالـخـواـرـجـ.ـوـكـانـتـ
هـذـهـفـرـقـةـقـدـلـجـاتـكـمـاـقـلـنـاـإـلـىـاسـتـرـاتـيـجـيـةـالـعـمـلـالـمـسـلـحـفـيـمـرـحـلـةـ
الـظـهـورـ.ـوـقـدـتـجـلـىـذـلـكـأـوـلـأـمـرـفـيـأـنـفـاضـاتـكـبـرـىـهـيـالـتـيـ
تـمـخـضـتـعـنـالـخـلـافـةـالـفـاطـمـيـةـوـالـكـيـانـاتـالـقـرـمـطـيـةـفـيـالـعـرـاقـوـالـيـمـنـ
وـشـرـقـيـجـزـيـرـةـالـعـرـبـ.ـوـفـيـغـضـونـالـقـرـنـالـخـامـسـشـرـعـتـفـيـ
استـخـدـامـأـسـلـوبـالـاغـتـيـالـ.ـوـيـأـتـيـلـجـوـءـالـاسـمـاعـيـلـيـةـإـلـىـهـذـاـأـسـلـوبـ

في ترتيب مناقض لنظيره عند الخوارج، الذين استخدموه في البدء ضمن استراتيجيةهم العامة في «حرب العصابات» ثم تخلوا عنه لصالح الانتفاضات في موقع نفوذهم. أما الاسماعيلية فقد بدأت بالانتفاضات وإنشاء مواقع النفوذ ثم الكيانات وانتهت إلى الاغتيال. يقترن هذا التحول عند الاسماعيلية بمقدمات دخولها مرحلة الأفول متمثلة في انحسار الخلافة الفاطمية في مصر وشروعها في التدهور، وانكماش الحركة القرمطية في شرقى الجزيرة ثم زوالها في أواخر القرن الرابع بعد أن صفت تماماً في العراق والشام. ولذلك لم تعطِ الاغتيالات مردوداً استراتيجياً للفرقـة، وإنما حققت لها مكاسب موضوعية.. ويستدل من تحليل ابن أبي الحديد على أن الاسماعيلية سلكت هذا السبيل بداعٍ شرعيٍّ. ولأهمية هذا التحليل نورده بنصه^(١٨):

«... إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند أصحابنا (المعتزلة) أصل عظيم من أصول الدين. وإليه تذهب الخوارج الذين خرجوا على السلطان متسلكين بالدين وشعار الإسلام مجتهدين في العبادة لأنهم إنما خرجوا لما غالب على ظنونهم، أو علموا، من جور الولاية وظلمتهم وأن أحكام الشريعة قد غيرت وحكم بما لم يحكم به الله. وعلى هذا الأصل تبني الاسماعيلية من الشيعة قتل ولاة الجور غيلة»

إن لقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نطاقات مختلفة: فردية وجماعية، كما ورد هذا التحليل في سياق شرح الكلمة في نهج البلاغة عن مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أن فيها ما يتعلّق بالسلطنة وما يختصّ بعامة الناس. وتحليل ابن أبي الحديد هنا منصب على نطاقها السياسي حيث يتعين على المسلم أن

(١٨) شرح نهج البلاغة ٤ / ٤١٣ .

يقاوم السلطة الجائرة بالوسائل المتاحة له، حسب شروطها وظروفها، ومن ذلك استعمال السلاح سواء كان هذا السلاح في حرب مكشوفة ضد السلطة أم أعمال قتل منفردة. وقتل الحاكم الجائر مبدأ اسلامي قديم، متأثر كما بینا في القسم الثاني بنزعة التمرد الاقاحية عند العرب الجاهليين. وقد أشرنا في القسم الأول إلى أن الاسلام لم يحرم الاغتيال السياسي وإنما حرم الاغتيال الشخصي.

على أن التعليل الشرعي للاغتيال لاينفي دلالته الاستراتيجية بوصفه نتاجاً لحالة الانحسار التي أصيبت بها الحركة. وهو من هذه الجهة تعويض عن فشل الثورة. ولو أنه كان عند الاسماعيلية تعويضاً باهظ الثمن للمعسكر المعادي. وقد ساعد في بعض حالاته على انتقال سلطة أو انهيار كيان كما أعطى الاسماعيلية وهي في أوان تراجعها هيبة في عيون أعدائها جعلت لها حضوراً مؤثراً في الأحداث.

ربطت بعض المصادر بعض الاغتيالات التي قام بها الاسماعيلية بالصراع على السلطة بين أمراء الحرب الأتراك، بحيث ظهرت في بعض الأحيان كما لو أنها كانت أ عملاً مأجورة. لكن الأحداث التي فسرت على هذا النحو، كانت في الواقع قد تحددت سلفاً بحلف سري بين بعض الأمراء والاسماعيلية ضمن هؤلاء بموجبه عدم التعرض لأعضاء الحركة مع تقديم تسهيلات تساعدهم على مواصلة التنظيم والدعوة^(١٩). وهي من هنا أقرب إلى تكتيك الاستفادة من تناقضات الأعداء منها إلى مفهوم الارتزاق، الذي لاينسجم مع المبادئ التي تعمل المجموعات الفدائبة بموجبها. ومن الجدير باللاحظة .. أن الفدائين

(١٩) ذكر ابن الأثير أسماء، أمراء، تواطأوا مع الباطنية أو قدموا لهم التسهيلات لنشر دعوتهم . ومن هؤلاء، مجد الملك الباسلاني قال ابن الأثير انه كان من قواد الدولة السلجوقية يتشيع كبير الصدقة على العلوبيين إلا أنه كان يذكر الصحابة ذكرأ حسنة ويلعن من يسبهم . وقد قتله أولاد أمير آخر قتله الباطنية لأنهم اتهموه بالتواطؤ معهم على قتله . كما أثر الباطنية في سوريا على خبيث لاب ارسلان كان يستولي على حلب فاستعاد بهم في كثير من أمورهم وفي عهده كانوا بحلب .. .

الاسماعيليين كانوا يعملون تبعاً لتوجيهات من مركز قيادتهم وكانت المبادرات الفردية في هذا المضمار شبه معروفة. نأتي الآن إلى وصف بعض العمليات التي نفذتها المعارضة في هذا العصر..

اغتيال معن بن زائدة:

كان معن من قواد الأمويين في أواخرهم ثم انضم إلى العباسيين في خلافة المنصور. وكان إرهابياً سفاكاً، عينه المنصور والياً على اليمن وكانت قد وقعت فيها قلاقل فعمها بوحشية وأباد الكثير من أهلها. ثم أرسله المنصور إلى سجستان فأساء السيرة فيها. وهناك عزم الخوارج على تصفيته. وكان للخوارج حضور قوي في تلك التواحي. وقد وصف ابن الأثير وابن خلكان كيفية ذلك فروياً أن المجموعة الفدائية التي تكفلت بالعمل تذكرت في زي عمال بناء. وكان معن يبني منشآت في منزله فدخل هؤلاء مع العمال. ويفهم من الرواية أنهم أخذوا يأتون يومياً إلى المنزل ويخرجن منه عند انتهاء ساعات العمل. وهم في أثناء ذلك ينتظرون الفرصة للتمكن منه. فلما بلغوا التسقيف جلبوا أسيافهم وأخفوها في القصب المعد لهذا الغرض. وسنحت الفرصة عندما استدعى معن حجاماً واحتلى معه في حجرة ليحجم له. فأخذ الخوارج سيوفهم من مخابئها وداهموه في حجرته ففتوكوا به. وقد شق أحدهم بطنه بخنجر، للاشتقاء منه كما يبدو، وهتف آخر وهو يخطبه بالسيف: «أنا الغلام الطاقي» نسبة إلى قرية في سجستان تسمى الطاق (٢٠).

إن قتل معن يأتي على سبيل التأديب والزجر لغيره من الولاة الذين

(٢٠) الكامل حوادث سنة ١٥١ ، وفيات الأعيان الترجمة . ٧٠٢

عرفوا بالتعطش إلى الدماء. لكنه لم يترك أثراً رادعاً. فقد أخذ ابن أخيه يزيد بن مَزِيد مهمته عمه وأربى عليه في القتل والتكميل في منطقة ولايته. وكان قد قبض على قتلة من فقتلهم وقتل معهم عدداً كبيراً من الخارج.

اغتيالات باطنية

قتل المقترن بالله العباسي:

عاصر المقترن نهوض الدعوة الاسماعيلية وتوطد كل من دولتها في المغرب والحكم القرمطي في شبه جزيرة العرب وكانت الحملات توجه ضد القرامطة باسمه أو من قبله رأساً. ولأبو طاهر القرمطي رسالة جوابية إلى المقترن ردأ على رسالة تهديد كتبها إليه يدل محتواها ولغتها على مدى العداء المستحكم بين الطرفين.

اغتيل المقترن سنة ٢٢٠ حين كان يحارب مؤنس الخادم، المتمرد عليه. أما كيفية اغتياله فيقول ابن الأثير^(٢١) إن جماعة من المغاربة والبربر لقوه في ظاهر بغداد حين انهزم فشهروا عليه سيفهم فقال: ويحكم أنا الخليفة. قالوا قد عرفناك يا سفلاً أنت خليفة أليس تبذل في كل رأس خمسة دنانير وفي كل أسير عشرة دنانير (يشيرون إلى المكافآت التي كان يعطيها لمرتزقته عن كل قتيل أو أسير يأسرونها). ثم ضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فطاح على الأرض وجلس آخرون على صدره وذبحوه ورفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه. ويخبرنا ابن الأبار^(٢٢) أن عبيد الله المهدي مؤسس الخلافة الفاطمية

. (٢١) الكامل حوادث سنة ١٥١ ، ونبات الأعيان الترجمة ٧٠٣ .

. (٢٢) التكملة ١٨٩/١ .

في المغرب ادعى المسؤولية عن تصفية المقترن وأقام مجلساً للتهنئة بنجاح خطة الاغتيال. وقد نقل ابن البار عن الصولي أن الذي قتل المقترن رجل يسمى عليون الصنهاجي وأنه رماه بحربة في صدره فخرجت من ظهره. وقد يكون عليون هذا أحد أفراد المجموعة التي هاجمت المقترن بحسب رواية ابن الأثير. وفي كلتا الروايتين فالقاتل من المغرب، مما يعزز ادعاء المهي الفاطمي.

إن اغتيال المقترن هو من أوائل العمليات الكبيرة التي نفذتها الأسماعيلية. لكنه حدث حين كانت الحركة في أوج قوتها وانتصاراتها فكان لذلك حدثاً منفرداً لا يندرج في سياق موجة الاغتيالات التي سيشهدها القرن التالي. أما مردوده فكان ضئيلاً إذ لم يترك أثراً كبيراً على العدو الذي كان المقترن رمزاً واحداً من رموزه العديدة ولم يكن شغور مكانه ليسيب ارتباكاً أو قصوراً في مركز السلطة، لاسيما وأن السلطة الفعلية كانت حينذاك بأيدي أمراء الحرب الأتراك المسلمين على الخلافة. أما ابتهاج عبيد الله المهي به فهو من باب استعراض القوة وإظهار قدرة الحركة على توجيه الضربات الموجعة للعدو في الوقت والمكان الذي تختاره.

اغتيال أمير حرب تركي:

تم ذلك عام ٤٤٠ أي بعد أكثر من قرن على اغتيال المقترن. وكان الهدف هو حاكم همدان الأمير آق سنقر. وكان هذا الشخص كما يصفه ابن الأثير كثير الفزو للأسماعيلية والقتل فيهم والنهب لأموالهم والتخريب لبلادهم. وقد جرى قتله في كمين نصب له وهو في طريقه لزيارة أحد رجال الدين جرياً على عادة أمراء الحرب الأتراك في توقير هذه الفئة والعنابة بشؤونها.

كان اغتيال آق سنقر فاتحة لوجة الاغتيالات التي نفذتها الاسماعيلية على امتداد حوالي القرن والنصف. وهو يأتي مع ظهور القلاع الاسماعيلية في المشرق حيث أخذت الحركة بالانكفاء في موضع نفوذ صغير كانت تطلق منها لتنظيم الدعوة في الخارج. وقد استخدم الاغتيال في تلك الظروف للدفاع عن القلاع بتوجيه ضربات مباغطة للأمراء الذين يفكرون في مهاجمتها، كما استفادت منه الاسماعيلية لإرهاب بعض الحكماء وإرغامهم على التساهل مع الدعاة، وعدم التعرض لنشاطاتهم. وفي هذه الحقبة حدثت الحروب الصليبية، فاستجد للاسماعيلية هدف آخر هو رؤوس الصليبيين وقوادهم. وكما سرى فيما بعد، فقد صار الفدائيون الباطنيون مصدر رعب غير عادي لأولئك الغزاة.

اغتيال نظام الملك:

هو الوزير المشهور وأعظم رجال الدولة في عهد السلاجقة. وكان إلى هذا يبدأ ضاربة للمعسكر السلفي الذي بدأ يستحوذ على العالم الإسلامي في ظل الأتراك. ويذكر ذلك نظرياً في كتابه «سياست نامه» الذي ضمنه البرنامج السياسي للسلفية في تعارض محسوم مع القوى الأخرى في المجتمع الإسلامي، وعملياً في السياسة القمعية المنظمة التي اتبعها تجاه هذه القوى لاسيما الاسماعيلية.

تحدث ابن الأثير عن مقتل نظام الملك في حادث سنة ٤٨٥ ووضع له أسباباً تختلف بحسب الروايات التي تناولت هذا الحدث. أحد هذه أن الباطنية قتلوا مؤذناً من أهل اصبهان كانوا قد عرضوا عليه الدعوة فلم يستجب فخافوا أن يتم عليهم بعد أن كان قد عرفهم. وكان الذي تولى قتله نجار باطني. وقد قبض نظام الملك على النجار فأمر بقتله فقتل تحت التعذيب. فقتل الاسماعيليون نظام الملك وقالوا: قتل نجاراً فقتلناه به.

وفي رواية أخرى تحدث ابن الأثير عن شقاق بين نظام الملك وسلطانه ملکشاه نتج عن استبداد نظام الملك بالسلطة دون ملکشاه. مما حدا بالأخير إلى التفكير في التخلص منه. وفي رواية ثلاثة قرن ابن الأثير اغتيال نظام الملك بتضييقه على الحسن بن الصباح واستعداده لإرسال جيش لفتح قلعة الموت أكبر قلاع الاسماعيلية في المشرق.

ولأرى تعارضًا بين هذه الروايات. فقد يكون قتل النجار الباطني حدث في وقت التخطيط لاغتيال نظام الملك فجعلته الرواية سبباً مباشراً له، على طريقة الرواية في تفسير وقوع حدث آخر سابق له إلى حد يظهر معه الحدث المفسر معزولاً عن ظروفه ومسبباته الأبعد والأعمق أثراً. ويمكن أن تكون القيادة الاسماعيلية قد استفادت من الشقاق بين السلطان ووزيره لتنفيذ خطتها ضد الوزير، الذي كان أخطر عليها من السلطان نفسه. أما تضييقه على الحسن بن الصباح وتاهبه لهاجمة قلعة الموت التي كان قد أسسها بنفسه لتكون مركزاً حصيناً لدولته في المشرق، فيأتي في مجرى النهج العدائي الذي انتهجه نظام الملك ضد الحركة، وهو أمر مفهوم ويشكل بالتالي حافزاً معقولاً للتفكير في تصفيته لإحباط خطة الهجوم.

قتل نظام الملك في مدينة نهاوند الفارسية القريبة من العراق وكان قد وصل إليها صحبة السلطان قادماً من اصبهان في طريق عودته إلى مقر عمله في بغداد. وكان الوقت رمضان فجلس للإفطار . وبعد أن فرغ منه حمل في محفظة إلى خيمة الحرير. وفي باب الخيمة تقدم منه صبي ديلمي من الباطنية في هيئة مستغاث وهو يخرج من المحفظة فعاجله بطعنة سكين قتلت عليه في الحال. وكان الصبي هو عنصر التنفيذ الوحيد وقد هرب بعد أن ضربه لكنه عشر بطنب خيمة فأدركه الحرس فقتلوه.

كان مقتل نظام الملك ضربة موجعة لدولة ملکشاه الذي توفي بعده بخمسة وثلاثين يوماً فانحلت الدولة وعمتها الفلاقل مما أعطى متৎساً للإسماعيلية وصان قلعة الموت من الاجتياح.

مقتل ابن نظام الملك:

كان يدعى فخر الملك. اغتالته الباطنية سنة ٥٠٠. ولم يذكر سبب معين لقتله، فهو جاري ضمن العمليات التي استهدفت أركان السلطة. أما كيفية قتله فقد كان خارجاً من داره إلى دار النساء عند العصر فسمع في الطريق صياح رجل متظلم شديد الحرقة وهو يقول ذهب المسلمون! فلم يبق من يكشف مظلمة ولا يأخذ بيد ملهوف. فأحضر الرجل إليه فسألته عن أمره فدفع إليه ورقة مكتوبة بمظلمة. وبينما فخر الملك يتأمل الورقة عاجله المتظلم بطعنـة سكين فقضى عليه. والمثير في هذه العملية أن الفدائي الإسماعيلي حين قبض عليه واستجوبـ سـمى جـمـاعـة من كـبارـ المسـؤـولـين قال إنـهمـ كانواـ وراءـ خـطةـ الـاغـتيـالـ فـأخـذـ هـؤـلـاءـ وـقـتـلـواـ وـلـمـ تـكـنـ لـهـمـ عـلـاقـةـ بـذـلـكـ. وهـكـذاـ ضـرـبـ أكثرـ منـ عـصـفـورـ بـحـجـرـ وـاحـدـ حـينـ أـضـافـ إـلـىـ قـتـيلـهـ عـدـدـ آـخـرـ مـنـ أـهـلـ الدـوـلـةـ قـتـلـواـ مـجـانـاـ بـأـيـدـيـ أـصـحـابـهـمـ .^(٢٢)

اغتيال الأَمْرَ بِأَحْكَامِ اللَّهِ الْفَاطِمِيِّ:

تولى الأَمْرُ الْخَلَافَةَ بَعْدَ وَالَّدِهِ الْمُسْتَعْلِيِّ الَّذِي اغْتَصَبَ الْخَلَافَةَ مِنْ أَخِيهِ الْأَكْبَرِ نِزَارِ بْنِ الْمُسْتَكْرِ. وَكَانَ لِنِزَارٍ أَصْحَابٌ مِنْ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ دَامُوا عَلَى وَلَائِهِمْ لَهُ وَاعْتَبَرُوا الْمُسْتَعْلِيَّ وَابْنَهُ غَاصِبِيْنَ. وَكَانَ مِنْ

.^(٢٢) ابن الأثير حوادث سنة ٥٠٠.

مرتكبات هذا الخلاف ظهور الطائفة النزارية التي استعصم فيما بعد بقلعة آملوت تحت قيادة الحسن بن الصباح. وكان الأمر بعد أن اغتصب الخليفة لم يحسن سياستها مما جعله معزولاً عن جمهور الدعوة مكروهاً من عامة الناس، فعمز النزارية على إنهائه. ونصف فيما يلي كيفية ذلك كما أوردها ابن تعزى بردبي^(٢٤):

توجهت إلى القاهرة من خارجها مجموعة فدائية من عشرة أفراد وبقيت هناك تتحين الفرصة للوصول إلى المقصود. ومرةً وقت طوبل نسبياً على ذلك فتاهى خبرهم إلى الأمر فاحتاط لنفسه وأخذ في تعقبهم. ولما فشا أمرهم اجتمعوا للتداول. وكانوا يربدون أن يتأكدو إن كانت سلطات القاهرة قد استطاعت تشخيصهم، فاقتصر أحدهم أن يقتلوا واحداً منهم ويرموا رأسه في المدينة فإن تعرفت عليه السلطات وجب على الباقين الانسحاب منها. فردوا على صاحب الاقتراح: ما يسع علينا قتل واحد منا ينقص عدتنا وما يتم بذلك أمرنا. فقال الرجل: أليس هذا من مصلحتنا ومصلحة من تلزمنا طاعته؟ قالوا نعم. فقال: وما دلتكم إلا على نفسى. وأخرج سكيناً وطعن بها نفسه فمات بين أيدي أصحابه. فأخذوا رأسه ورموه في الليل في مكان محدد. وفي الصباح خرجوا متفرقين ليستطلعوا الحال فوجدوا الناس يبحثون في شأن الرأس وصاحبـه دون أن يعرفـه أحدـ منهمـ. ثم حملـوه إلى الوالـي (عمدةـ المدينةـ) فأحضرـ عـرـفاءـ الأسـواقـ فـلمـ يـعرـفـوهـ ثـمـ مـسـؤـوليـ الأـربعـ والـحارـاتـ فـلمـ يـعرـفـوهـ. وأـيقـنـ التـسـعـةـ عـندـئـ أـنـ السـلـطـاتـ لـمـ تـتوـصـلـ إـلـىـ تـشـيـصـهـمـ فـاطـمـأـنـواـ إـلـىـ الإـقـامـةـ فـيـ المـدـيـنـةـ لـأـدـاءـ مـاـكـلـفـواـ بـهـ.

وجاء يوم أحب الأمر أن يذهب للنزهة في جزيرة تسمى الروضة. وكان عليه للوصول إليها أن يمر على جسر ممدود من القاهرة إلى الجزيرة. وكان من عادة الخلفاء أن يعلنوا نيتهم في الخروج بين

. ١٨٥ - ١٨٤) النجم الزاهره (٢٤

الحاشية حتى يكونوا متأهبين لما ينبعي من الخدمة فسرى الخبر إلى المجموعة النزارية فسبقوه إلى الجزيرة وكان في قبالة الجسر فرن فدخلوه ودفعوا إلى الفران دراهم وافرة ليعمل لهم فطيراً يسمى وعسل، فأخذ الفران يخرب لهم وهو يأكلون. وكانوا في هذه الأثناء يتطلعون صوب الجسر حتى طلع الأمر منه . وكان الجسر ضيقاً ولا يسمح بمرور موكب فراوه متفرداً عن حراسه، فوثبوا عليه ومزقوه بسكاكينهم. ولكن يتأكدوا من الإجهاز عليه ففز أحدهم فركب وراءه وطعنه طعنات مميتة. وفي هذه اللحظات وصل الحرس إلى خليفتهم ولكن بعد أن كان قد انتهى غير أنهم أدركوا الرجال التسعة وقتلواهم. لم يترتب على اغتيال الأمر نتيبة مذكورة. وقد تولى بعده أحد أبناء عمومته الملقب بالحافظ وكان أسوأ منه. لكن النزارية سجلوا لهم بهذا الإنجاز وفقة زادت من هيبتهم في قلوب أعدائهم.

اغتيال أمير حرب إرهابي:

كانت مدينة الموصل في شمال العراق قد خضعت شأن غيرها من مدن العراق والجزيرة لأمراء الحرب الأتراك الذين تداولوها بالوراثة أو التغلب. وكانت في ذلك الحين من مراكز النشاط الاسماعيلي فتصدى له أمراؤها الأتراك على طريقتهم وكان أشدتهم في ذلك أمير حرب متدين يسمى قسيم الدولة آق سنقر الْبُرْسُقي. يقول ابن الأثير^(٢٥) إن هذا الرجل قد تولى استقصاء الباطنية في الموصل ووصله خبر أنهم يجتمعون لدى اسكاف في درب ايليا، من أحياه الموصل، فقبض عليه واستجوبه فلم يخبره بشيء. فأمر به فقطعت يداه ورجلاه وعضوه التناسلي ثم رجموه بالحجارة حتى مات. فترصد الباطنية آق سنقر

(٢٥) الكامل . حوادث سنة ٥٢٠ .

حتى وجدوا منه غفلة وهو يصل إلى الجمعة فانقضى عليه بضعة عشر
رجل منهم بالسكاكين. وكان منفرداً عن حراسه فقاتلهم بنفسه وجرح
ثلاثة منهم. لكنهم استطاعوا القضاء عليه.

اغتيال حاكم صور الصلبيين:

ذكر هذا الحاكم في المصادر العربية باسم المركيس. والمعروف أن المركيس ليس اسمًا بل لقباً يشير إلى مكانة أو منصب في أوروبا القديمة. وكانت للمذكور قرابة ملكية فقد كان، تبعاً للمؤرخين العرب، ابن اخت ملك فرنسا من أبيه وابن اخت ملك إنكلترا من أمه. ويوجد اختلاف كبير في دوافع وعواقب اغتياله على يد الاسماعيلية بين ابن الأثير في «الكامل» وابن واصل في «مفرج الكروب» وقد أرجأت البحث في هذه المسألة لعدم مساسها بموضوعنا وأكتفي بوصف كيفية التنفيذ.

جرى ذلك عام ٥٨٨ هـ وكان مقدم الاسماعيلية في الشام هو راشد الدين سنان. ولما تقرر قتل المركيس المذكور كلف راشد الدين اثنين من فدائيه. وقبل أن يتحرك هذان الفدائيان تتکرا في زي الرهبان. وفي صور اتصلاً باثنين من قادة الصليبيين فأقاما معهما ستة أشهر يظهران العبادة. فأنسا إلیهما المركيس ووثق بهما. وجاءت مناسبة أقام فيها أسقف صور وليمة للمركيس فحضرها. وكان الباطنيان حاضرين في حرم الاسقفية بحكم منصبهما الروحي فانتظراه حتى خرج، فوثبا عليه وطعناه طعنات سريعة لم تكن قاتلة. وهرب أحدهما ودخل كنيسة قريبة هناك. وصادف أن حمل المركيس إلى تلك الكنيسة لي تعالج فوثب عليه الباطني وأجهز عليه. وقد قبض الصليبيون على الفدائيين وقتلوهما تحت التعذيب.

اغتيال وزير سلجوقي ظالم:

في حادث ٥١٦ هـ من «البداية والنهاية» تحدث ابن كثير عن علي بن أحمد الشميرمي وزير السلطان السلجوقي محمود حدثاً نقله بنصه لأنه ظريف ووافي الرواية:

كان مجاهراً بالظلم والفسق وأحدث على الناس مكوساً وجدها بعد أن كانت قد أزيلت من مدة متطاولة وكان يقول قد استحببت من كثرة ظلم من لاناصر له وكثرة ما أحدث من السنن السيئة: ولما عزم على الخروج إلى همدان احضر المنجمين فضربوا له تحت رمل ساعة خروجه ليكون أسرع لعوده، فخرج في تلك الساعة وبين يديه السيف المسلولة والمماليك الكثيرة بالعدد الباهرة فما أغنى عنه ذلك شيئاً بل جاءه باطلي فضربه فقتله ثم مات الباطلي بعده. ورجع نساوه بعد أن ذهب بين يديه على مراكب الذهب حاسرات عن وجوهن قد أبدلهم الله الذل بعد العز والخوف بعد الأمان والحزن بعد السرور جراء وفاقاً.

اغتيالات باطنية أخرى:

- القاضي أبو سعد بن نصر بن منصور الهروي، المقرب من المسترشد العباسي قتله الباطنية عام ٥١٩ هـ.
- المسترشد العباسي قتله الباطنية سنة ٥٢٩. ويتهم به السلطان السلجوقي مسعود بعد حروب وقت بينهما .
- وزير الخليفة المستضيء واسميه عضد الدولة رئيس الروساء ابن المسلم قتله الباطنية عام ٥٧٤ وهو متوجه إلى الحج وقد خرجت حاشيته لوداعه .
- صاحب مراغة (بآسيا الوسطى) قتله الباطنية في مجلس السلطان

السلجوقي محمد سنة ٥٩٠ هـ.

وقفة عند اصطلاح «حشاشين»:

عرف الاسماعيلية بهذا الاسم أيام الحروب الصليبية مقترباً بمفهوم الاغتيال. يقول فايير في دائرة المعارف الاسلامية أن الاسم أطلق على الفريق الاسماعيلي الذي كان يحتل أيام الحروب الصليبية القلاع الجبلية في الشام وغيرها من بلاد المسلمين، والذين جروا على التخلص من خصومهم بالاغتيال. وأردف فايير ذلك بما كان يقال من أن الفدائين الاسماعيليين كانوا يدفعون إلى تعاطي الحشيش حتى يصبحوا كالآلة الصماء يقومون بكل ما يتطلب منهم.

هل كان الاسماعيلية يتغطّون الحشيشة لهذا الفرض؟ إن هذه العادة عرفت في العصور الاسلامية المتأخرة وما رستها حينذاك بعض الجماعات الصوفية التي استمرت عليها أيضاً في العصر العثماني. وكانت المخدرات قد عرفت أيضاً في الحقولين الطبي والعام ومنها البنج والأفيون. ومن المظنون أن الاسماعيلية قد مارسوا هذه العادة في حدود معلومة. ويمكن قبول هذا الاحتمال بالاستناد إلى اصطلاح «حشاشين» في صيغته اللاتينية وهي «Assasinus» أو الفرنسية القديمة «Haussassin» فهذه الصيغة تشير إلى الأصل اللغوي الذي أخذت منه وهو لغة الكلام (العامية) لأنها تستعمل جمع المذكر السالم في حالتي الجر والنصب التي تتم بالياء والنون فقط ولا تغيرها مع تغير موقع الكلمة من الاعراب. ويدلنا ذلك على أن الاسم قد جرى على السنة العامة في بلاد الشام أيام الحروب الصليبية. وظهور الاسم في التداول لا يمكن أن يكون بلا أساس تماماً، ولو أننا لانسقّط من هذا الحكم إمكان تبلور الاشاعة في صيغة قناعة شعبية راسخة. وفي كل الأحوال

لايصح القول ان الاسمااعيلية ادموا الحشيشة لأن هذا يتعارض مع مطلب الانضباط الشديد المفروض على أعضاء الفرقه لاسيما فدائيهما . والمدمن على الحشيشة يتغذى عليه أن يكون فدائياً من ذلك الغرار الخارق الذي عرفناه عند الباطنيين . لكن ربما كان الفدائيون يتذالون جرعة مقننة من مخدر ما تساعدهم على عدم التوتر عند تنفيذ عملياتهم . وأعرف شعراء سياسيين لا يمكنهم إلقاء قصائدهم الحماسية إلا إذا شربوا الخمر .

يجدر الملاحظة أيضاً أن المبالغة في هذا الوصف جاءت من الأوروبيين، الذين استعملوا الاسم مشفوعاً بإيحاءات مرعبة تعكس بلا شك حالة الفزع التي سببتها النشاطات الاسمااعيلية في صفوف الصليبيين، وقد أورد قاموس اكسفورد التاريخي جملة تعريفات للاصطلاح تُشعر بهذا المعنى: القاموس نفسه يفسر الكلمة على النحو التالي:

«الشاشون هم مسلمون متغصبون أيام الحروب الصليبية كان يرسلهم شيخهم - شيخ الجبل - للفتك بالزعماء المسيحيين (يقصد الصليبيين)».

ويقول القاموس أيضاً إنها أطلقت على الاسمااعيلية الذين اعتادوا على تخدير أنفسهم بالحشيشة عند الاستعداد لإهلاك ملك أو أي شخص آخر. وأورد القاموس تعريفاً للاسم يرجع إلى عام ١٦٠٢ جاء فيه أنه أطلق على فئة من «المستقظين الخطرين من المسلمين»، وآخر من عام ١٦١١ يقول أنها فرقة دموية من السراسين (الاسم الأورو-قروسطي للمسلمين) يقومون بدون أدنى خوف من العذاب بالفتوك بأي أمير مرموق يشك في فسقه أو مروقه^(٢٦).

وقد أدخلت بعض التعريفات الأوروبية عنصر الاستئجار على عمل

(٢٦) عن : The Oxford English Dictionary طبعة 1978 . المجلد الأول . مادة Assasin .

«الحشاشين» وهو اتهام يتردد أحياناً في المصادر الإسلامية، ويتضمن المعنى الحديث للكلمة الانكليزية «Assassin»: «من يفتal لسبب سياسي أو مكافأة».

هذا ويجد التصور الأوروبي لمفهوم «حشاشين» تعزيزاً في رواية أوردها ماركوبولو تحدث فيها عن تخدير المريد الاسماعيلي بالأفيون ثم نقله إلى رياض مونقة أعدت وفق أوصاف الجنة المذكورة في القرآن، ثم إخراجه منها بعد أن يكون قد رآها بنفسه ليكون أكثر اندفاعاً في تنفيذ الأوامر وقبول التضحية من أجل أن يعود إلى تلك الجنة^(٢٧). وهذا على الأكثـر افتراء نقله ماركوبولو عن أعداء الاسماعيلية الذين التقى بهم أثناء رحلته. ومعلومات هذا الرحالة البندقي عن المسلمين غير موثوقة لعدم دقة نقله من جهة وتعصبه العدائي ضدهم من جهة أخرى.

بالنسبة للمصادر العربية، لا يتردد اسم حشاشين. والاسم الشائع هنا هو الفداوية وهو تحريف عامي للكلمـة الفصـحـة: الفدائـية. (الابـدـالـ بـيـنـ الـهـمـزةـ وـحـرـوفـ الـعـلـةـ الـثـلـاثـ شـائـعـ عـنـ الـعـربـ). ومن المـشـيرـ لـلـلـانـتـبـاهـ أـنـ الـغـزاـلـيـ الـذـيـ بـذـلـ مـاـفـيـ وـسـعـهـ لـفـضـ الـبـاطـنـيـةـ بـتـوجـيهـ مـنـ السـلاـجـقـةـ وـالـعـبـاسـيـنـ لـمـ يـذـكـرـ هـذـاـ الـاسـمـ الـجـارـحـ بـيـنـ عـشـرـةـ أـسـمـاءـ نـصـ عـلـيـهاـ فـيـ كـتـابـهـ «ـفـضـائـجـ الـبـاطـنـيـةـ»ـ وـشـرـحـ مـعـانـيـهاـ وـمـدـلـوـلـاتـهاـ. وـلـمـ يـكـنـ الـغـزاـلـيـ لـيـشـيـعـ عـنـ هـذـاـ الـاسـمـ تـورـعاـ.

اختيارات أندلسية

كانت ظروف الصراع والحروب الأهلية في الأندلس مثلها في المشرق، قائمة على قدم وساق حتى نهاية الحكم الإسلامي في تلك

. The Travels Of Marco Polo , London 1967 p 73 - 77 (٢٧) عن :

الأحياء. لكن مضمون الصراع كان مختلفاً نوعاً ما. فبسبب خصوصية وضع الأندلس لم تبلغها الحركات الاجتماعية التي قاتلت ضد السلطة إلا بمقدار. والمعروف أن مجتمع الأندلس كان مجتمع مهاجرين وقد عاش في حالة مواجهة متصلة ضد أهل البلاد، الأمر الذي حد من حالة الاستقطاب بين الشعب والسلطة وحصر الصراع في دائرتين كان في الأولى بين الفئات الأندلسية الحاكمة وفي الثانية ضد أهل البلاد. وقد ظهر الاغتيال هنا كما في الشرق ولكن ضمن هاتين الدائرتين. ويتضمن سجل التاريخ الأندلسي حوادث اغتيال تفاقمت بعد انفصال الأندلس عن مركز الخلافة واستبداد الخصومة بين حكامها الأمويين وأمراء الحرب (ملوك الطوائف) ثم بين أمراء الحرب أنفسهم. واستعملت في الاغتيال نفس الوسائل: السم والماباغة بالسلاح والقتل في الحمام. وضحايا الاغتيال هم الملوك والأمراء أنفسهم. ولم أقلع في حدود استقصاءاتي على حادث اغتيال موجه ضد قائد إسباني من ذلك الضرب الذي حصل في الشرق ضد الصليبيين. ولاشك في أن الأندلس كان مفتقرأ للخبرات الاسماعيلية في هذا الميدان. ولم يعرف الأندلسيون الجماعات الفداوية التي عرفها الشرق والتي نفذت دورها المرعب إلى عمق القاموس الأوروبي. ويرتهن الفارق في الحالتين بطبيعة النزاع: فهو في الأندلس من محظتين ضد سكان أصليين، وهو في الشرق من سكان أصليين ضد محتلين. ويعني ذلك اختلاف الدوافع وبالتالي تفاوتها في درجة التحفيز مع ما يترتب عليه من التفاوت في عنصر الابداع على صعيد التكتيك حيث يضعف في الأولى ويشتد في الثانية.

يمكن للباحث أن يتبع من مراجعة السجل الأندلسي أن أخطر حوادث الاغتيال هناك هي تلك التي وقعت في الحقبة الغرناطية/ الأخيرة، لأنها أثرت بعمق في مجرى النزاع الإسلامي الإسباني وربما

ساهمت بحسمه لصالح الطرف الآخر. وقد ترك لنا مؤرخ غرناطة الأكبر لسان الدين بن الخطيب ثبتاً وافياً بهذه الأحداث إلى عهده ساختار منها ثلاثة حوادث أساسية لما تضمنته من مدلولات خطيرة في تاريخ غرناطة الإسلامي.

اختيال السلطان اسماعيل بن فرج - أبو الوليد

هو خامس ملوك غرناطة من بني الأحمر. وقد يكون أعظمهم على الإطلاق. انتزع الملك من خاله المسمى أبو الجيوش نصر، رابع الملوك، وكان ضعيفاً، لكنه لم يقتله كما جرت العادة، وإنما عينه والياً على ناحية وادي آش من أعمال غرناطة. وكان والده حينذاك حياً ويتولى مدينة مالقة، فأنكر على ولده ماقعده بحاله، فقبض عليه احتياطاً من نشاط مناوئ قد يصدر عنه بالتواء مع الحال المخلوع. لكنه لم ينكل به وإنما فرض عليه إقامة جبرية في مكان مناسب له.

تهيأت لغرناطة في عهد أبو الوليد إمكانات صمود كبيرة ضد الأسبان. وكان هؤلاء قد تجمعوا بقيادة بيذرو الأول منتهزيين الاضطرابات التي رافقت خلع سلطانها وبيعة أبو الوليد، وحاولوا اقتحام حصون غرناطة. وتقدر بعض الروايات عدد جيش الأسبان في هذه المحاولة بخمسين ألف وخمسمائة فارس وأربعة آلاف راجل فقط. لكن الغرناطيين بقيادة أبو الوليد أحقوا بالأسبان هزيمة نكراء أسفرت عن مقتل الملك بيذرو وتمزق جيشه الجرار.

بعد الانتصار الكبير في هذه المعركة بدأ أبو الوليد محاولات استرجاع مضادة، فخرج من غرناطة بجيش قوي معزز بالمدفعية وحاصر بلدة حصينة للإسبان تسمى إشكير. وقد وصف ابن الخطيب القصف المدفعي على هذه البلدة فقال^(٢٨): «ورمى بالآلة العظمى

. ٣٩٠ / ١) الإحاطة (٢٨)

المتخذة بالنفط كردة حديد محممة طاق البرج المنبع من معقله فاندفعت يتطاير شررها واستقرت بين محصورين فعاثت عياث الصواعق السماوية فألقى الله (يقصد المدفع) الرعب في قلوبهم وأتوا بأيديهم وزلوا قسراً على حكمه» ويبدو من هذا الوصف أن مدفع السلطان أبو الوليد كان متطوراً عن المدفع الأولى التي استعملها عرب المغرب قبله بحوالي القرن، لأنه يدل على حدوث انفجار شديد. وقد لفت هذه التجربة الجديدة أنظار أهل غرناطة فنظم حكيمهم أبو زكريا بن هذيل وكان من المتخصصين في العلوم قصيدة وصف فيها المعركة وتحدث عن القصف المدفعي بالأبيات التالية:

وطنوا بأن الصعق والرعد في السما فحاق بهم من دونها الصعق والرعد
غرايب أقطار سما هرمي بها مهندة تاتي الجبال فتنهد
الا إنها الدنيا ترىك عجائباً وما في الشوى منها فلابد أن يبدو

هرمس: حكيم يوناني (خرافي^٦) تسب إلى الكيمياء والفنون.
لاشك، اذن، في أن حاكماً مثل أبو الوليد كان من شأنه أن يورق الإسبان الطامحين إلى استرداد ماتبقى من أراضيهم المحتلة. وكان المسلمون في هذه الحقبة قد انحصروا في رقعة صغيرة نسبياً من إسبانيا هي غرناطة وجوارها. وقد جعل ذلك للإسبان هيمنة على الوضع العام في بلادهم كرست تفوقهم السياسي والعسكري على المسلمين. وكان بمقدورهم من هنا أن يؤثروا في مجريات الأمور بغرناطة نفسها بل وأن يكون لهم رتل خامس بين أهلها من العرب والبربر والمولدان (الإسبان المستعربين) على السواء. وفي ضوء هذه الحقيقة يمكن أن نتوقع تفكيراً جدياً من الإسبان في التخلص من حاكم خطري يبلغ به بعد النظر وعمق الطموح إلى البدء بإدخال تغيير جذري في أنظمة الجيوش كان مقدراً له أن يعيد الكرّة للمسلمين على الإسبان.

جاء في الإحاطة أن السلطان أبو الوليد كان عائدًا من مدينة مرتش بعد أن فتحها . وفي الطريق نقم على ابن عم له أمرًا فقرعه عليه وبالغ في الاهتمام له وتوعده . فتواطأ المذكور مع جملة من القرابة والخدم فوثب عليه وهو يمشي بين الصفيين من أعنوانه إلى مجلس عام كان يجلسه للناس . وكان يلصق خنجرًا في ذراعه فطعنه ثلاثة طعنات كانت إحداها في عنقه من أعلى الترقوة . وقد خر السلطان صريعاً وحمل إلى بعض الدور في قصر الحمراء وفيه رمق بسبب لزوق عمامته بفوهه شريانه المبتور . وسرعان ما سلم الروح عندما أزالوا العمامة من ذلك المكان .

يصعب القول في الواقع أن مثل هذه العملية الفادحة قد تمت بمجرد خلاف مع ابن عم . ثمة احتمال قوي في وجود تدبير مسبق شارك فيه بعض أعنوان السلطان من عملاء الأسبان وأنهم كانوا يت حينون فرصة للتنفيذ حتى حصل الخلاف بين السلطان وابن العم هذا فاتخذوه مطية لأغراضهم . وكانت دول الطوائف الأندلسية مليئة بأمثال هذا الشخص من المغامرين المستعدين للقيام بأى عمل تمليه عليهم مصالحهم الطارئة أو أمزاجتهم الحادة .

اغتيال الوريث:

إن مقتل أبو الوليد كان بمثابة ضربة قاصمة لمخططاته الاسترجاعية ، لولا أن السلطة آلت فوراً إلى ولده محمد . وكان الوليد جارياً في سلك والده سياسة وكفاءة وطموحاً . وقد استعاد مدينة قبرة الحصينة بعد قصفها بالمدافع كما فتح مدينة باجة واسترجع جبل طارق واستولى على حصون هامة للاسبان . وأخذ بعد هذه الفتوحات يتهيأ لاستعادة الشبيبة . وكان مقدراً له أن يحقق ذلك لو طالت مدته ، ولكن ممكناً وبالتالي أن يحدث انعطاف ما في مجرى الصراع العربي الأسباني .

كان السلطان محمد بن اسماعيل يهم بالانصراف من جبل طارق بعد أن أتم فتحه، على نية العودة إلى غرناطة بالبحر. وقبل نزوله إلى البحر خرج إليه كمين من بعض مشايخ أغوانه كان بينهم مملوك إسباني لوالده يقول ابن الخطيب أنه صونع على اغتياله. وقد تولى هذا المملوك قتله بنفسه. ويقول ابن الخطيب إن من تواطأ على قتله كبير فقهاء غرناطة أبو الحسن بن الجياب. وقد حرر هذا الفقيه مطالعة إلى ملك المغرب أبو الحسن المريني يتهم فيها السلطان المدور بالمرroc من الدين ويدافع عن خطة قتله اغتيالاً^(٢٩).

إن اليد الإسبانية ملحوظة في هذا الحادث من خلال التورط المباشر للمملوك الإسباني. ومن المرجح أن يكون لهذا المملوك رديف من عملاء الإسبان قد يكون كبير الفقهاء واحداً منهم مالم نقل إنه أي الفقيه ساهم في تنفيذ خطة معادية مدفوعاً بخلاف شخصي مع السلطان.

سلطان بعد محمد أخيه يوسف المكنى أبو الحجاج. وكان أقل فاعالية من أخيه والده، ولم يحقق شيئاً أمام الاندفاع الإسباني. ومع ذلك لم ينج من الاغتيال. ولعل الإسبان أرادوا أن يستأصلوا آثار أبو الوليد في أبنائه حسماً للمخاطر الكامنة في سلسلة الوارث. وقد صرحت المصادر أن مفتاله كان ممسوساً وأنه داهمه وهو يؤدي صلاة عيد الفطر في جامع الحمراء^(٣٠). ويقول ابن الخطيب إنه طعنه بخنجر كان قد أعده واعتدى بعلاجه. وهذا دليل على إعداد مسبق يجب أن تستبعد معه مسألة المس. ومن المحتمل أن يكون القاتل قد تظاهر بالجنون بعد أن قبض عليه ولو أن ذلك لم يُنجزه من القصاص. ومما يلقي الشك على الحادث كيفية وصول هذا الشخص إلى مصلى السلطان، وهو أمر لم يعد ميسوراً بعد الخلفاء الراشدين إلا للحاشية الخاصة جداً.

(٢٩) نفسه /١٥٤٠، ١٥٤١، ١٥٤٢ .

(٣٠) نفسه /٤٢٢ . - أيضاً : ابن خلدون /٤١٧٤ . - الدرر الكامنة للعسقلاني /٤١٥٠ - ٥١ .

إن هذه السلسلة من الاغتيالات قد ساعدت كثيراً على بتر الخطط الاسترجاعية لحكام غرناطة ووفرت للاسبان فرصاً جيدة لتعزيز قدراتهم. وبالدرجة الأولى، أحبط اغتيال كل من أبو الوليد وابنه محمد مفعول تلك الخطوة التي تحقق لجيش غرناطة بتطوير مدفعته. وقد أظهرت الحروب اللاحقة تفوقاً للاسبان في هذا المضمار تم على حساب الخطة المجهضة للسلطان العظيم أبو الوليد.

لما يفوتنا مع ذلك تذكر ماقلناه آنفأً وهو أن استرجاع الاسبان سيادتهم على الشطر الأكبر من بلادهم قد أعطاهم أفضلية في صراعهم الأخير مع المسلمين. وفي ظروف التفوق تكون العلاقة شائلة بين طرفين الخصم ويتهيأ للمتفوق وسائل تأثير في المعسكر الآخر من بينها أن يتوصل إلى إيجاد رتل خامس يعمل لصالحه. وبين تاريخ السياسة الحديثة أن العميل هو في الغالب فرد من بلد ضعيف يخدم مصالح بلد قوي متتفوق عليه اقتصادياً وعسكرياً. ومع أن مسلمي غرناطة كانوا حتى ذلك الوقت محتفظين بتفوقهم الحضاري على الاسبان فإن حالة الهيمنة التي تمت للاسبان بعد نجاح حروب الاسترداد قد أوجدت لها معاذلاً نفسياً كانوا يستطيعون من خلاله التأثير على أهل غرناطة. وممّا له دلاله ناطقة هنا أن يكون تسليم غرناطة قد جرى على يد أمير كان قد استولى على عرشها بالتواطؤ مع الاسبان وجعلها قبل أن يسلّمها نهائياً شبه محمية لهم.

وفيات مشبوهة

أبو حنيفة:

هو النعمان بن ثابت بن زوتي، أفغاني الأصل من كابل، مؤسس المذهب الحنفي وأحد أعظم الفقهاء وأكثربن نضجاً وتحرراً. ظهر في

المرحلة التي كان فيها الفقهاء يعارضون السلطة الإسلامية لأنحرافها عن سياسة الراشدين وكان يؤيد العمل المسلح لفرق المعارضة، وقد اختص بتأييده حركات الشيعة في أواخر الأمويين وأوائل العباسيين. وكان له دور مشهود في حركة ابراهيم بن عبد الله الحسني في البصرة ضد المنصور. وبعد نجاح الأخير في إنهاء هذه الحركة استقدمه من الكوفة وعرض عليه العمل قاضياً فائباً. وقد اختلفت الأقوال في مصيره بعد ذلك.

فقيل إنه تولى عد اللين عند بناء بغداد حتى يكفر عن يمينه. وكان المنصور حين عرض عليه القضاء فأبى، حلف عليه أن يقبل فلحف على أن لا يقبل. واليمين هنا ملزم للمنصور وليس له، فلا موجب للكفارة. ويبدو على هذا القول في الواقع مسحة الحكايات الظرفية التي دارت حول هذا الفقيه، ومعظمها يعكس، دون أن يكون صحيحاً بالضرورة، شخصيته الاجتماعية المتسمة بالتسامح مع الناس وبرودة الأعصاب، مع القدرة التي اشتهر بها على القياس وحضور البديهة. وقد ذكر ابن حجر أن هذا القول مردود من الأئمة وأن الصحيح أنه مات في السجن من الضرب أو السم^(٢١).

وقد أشار إلى رواية تسميه في السجن ابن عبد البر القرطبي في «الإنقاء» والذهبي في العبر دون أن يجزما بها^(٢٢). وأورد ابن حجر رأياً يقول إن الامتناع عن القضاء لا يوجب أن ينكل به المنصور إلى هذا الحد، وإنما السبب هو دوره في حركة ابراهيم وأن المنصور لم يتجرأ على قتله بغير سبب فطلب منه القضاء مع علمه بأنه لا يقبل ليتوصل بذلك إلى قتله^(٢٣).

والأرجح عندي أن المنصور كان جاداً في عرض القضاء عليه مع

(٢١) الخيرات الحسان . القاهرة ١٢٠٤ هـ ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢٢) الإنقاء، ط - القاهرة ١٣٥٠ هـ من ١٧١ - ١٧٣ . - العبر في خبر من غير ١٢٥٠ هـ حادث ١٥٠ .

(٢٣) الخيرات الحسان . ٦٧ - ٦٨ .

علمه بدوره في حركة ابراهيم لأنه، أي المنصور، كان حريصاً على استصفاء المثقفين وإلحاقة بهم بجهاز الدولة، ولو قبل أبو حنيفة لعينه فعلاً وقربه إليه. لكن رفضه الذي جاء بعد تورطه في حركة ابراهيم كان استفزازاً لل الخليفة فقد أتى به في السجن. وقد ذكر ابن حجر أن المنصور أمر بضرره في ميدان عام ضرباً مبرحاً أدى إلى هلاكه. وأنا أستبعد ذلك لأن المنصور كان من حسن السياسة وعدم التهور بحيث لا يقدم على هذا الإجراء بحق رجل كأبو حنيفة، والأولى عندي أنه مات بالحبس إما بالسم أو موتاً طبيعياً. وكان عمره سبعين سنة حين سجن وهو عمر لا يساعد على تحمل ظروف السجن التي كانت ردئه للغاية.

موسى الكاظم :

الإمام السابع في سلسلة الأئمة الاثني عشر. وردت تقارير إلى هارون الرشيد عن علاقات واسعة له وأموال كثيرة تجبي إليه من الجهات، فوضعها على ملاك التنظيم السياسي المناوئ، وهو أمر متوقع من قبل موسى، فسافر إلى الحجاز بنفسه متظاهراً بالحج. وعند العودة أمر بالقبض على موسى، وكان في المدينة واقتاده إلى بغداد.

سجن موسى في دار رجل من أعيوان الرشيد يسمى السندي بن شاهك، هندي الأصل، وبعد مدة لم يعینها المؤرخون أخرج ميتاً من دار السندي ووضع جثمانه على الجسر ونودي عليه: هذا موسى بن جعفر الذي تزعم الرافضة انه لا يموت فانتظروا إليه^(٢٤). ويوجد خلاف في سبب موته. وقد روى أبو الفرج من طرق مختلفة أن السندي لفه ببساط وقعد فراشون من النصارى على وجهه حتى مات مختنقاً. ثم أدخل عليه الفقهاء ووجوه أهل بغداد فنظروا إلى جثمانه فلم يجدوا أثراً لموت مرتب، وشهدوا على ذلك^(٢٥). وشهادة هؤلاء وردت في تاريخ

(٢٤) مقاتل الطالبين ٤ - ٥٠٥ .

(٢٥) نفسه .

بغداد للخطيب وفي تاريخ اليعقوبي^(٢٦). ولم يذكر الخطيب أنه اغتيل أما اليعقوبي فقال إن السندي هو الذي تولى قته. وفي رواية أبو الفرج بعض الحال؛ فالمليت مختلقاً لاتخفي آثاره ولا يمكن للقاتل أن يجاذف بعرضه على الشهود. كما أن الإشارة إلى ديانة الفراشين تحمل تقليطاً للحادث ينم على الأثر الشيعي في الرواية. وقد يقال هنا أن غير المسلم أكثر استعداداً للقيام بهذا العمل ضد إمام مسلم، لكن تاريخنا يثبت أن الأكثريّة المطلقة من الجنادين وقتلة أهل البيت كانوا مسلمين. أما إغفال الخطيب لاحتمال موته اغتيالاً فقد يكون سببه اتجاه هذا المؤرخ الميال لدفع التهم عن الخلفاء العباسيين. ويفسر هذا أيضاً مسالك الطبرى الذى اكتفى بالنص على موته في بغداد، وربما ابن كثير صاحب البداية والنهاية. ويلاحظ عدم ذكر موسى الكاظم في قائمة المفتالين من الأشراف التي أوردها ابن حبيب البغدادي وهو قريب العهد نسبياً من موسى. ويمكن أن نستخلص من هذا دليلاً على عدم اشتهر الشك في موته، لأن مؤلفي مثل هذه القوائم ذات الطبيعة الاحصائية يميلون عادة إلى توسيع قوائمهم، فلو تطرق إلى ابن حبيب شك ما في هذا الحادث لما أهمله. على أن ابن خلكان ذكر قول البعض أنه مات مسموماً ولو أنه لم يؤكده^(٢٧).

من محمل ماسبق يكون موت موسى الكاظم في السجن مثاراً لشبهة صعبة الحل. من المحتمل جداً أن إشاعات موته اغتيالاً قد رافق إخراجه ميتاً من السجن. وهو أمر معتاد في مجتمعاتنا حيث تلعب الإشاعة دوراً كبيراً في صياغة الخبر السياسي، ولو أن الإشاعة قد لاتخلو من أساس متين حين تتعلق بحادث كهذا: يخرج فيه معارض كبير للدولة لم يتجاوز الخمسين، ميتاً من السجن. وسوء الظن

(٢٦) ت. بغداد ٢٢/١٢ . ت. اليعقوبي ١٤٥/٢ .

(٢٧) وفيات . . . الترجمة ٧١٧ .

بالسلطة تقليد سياسي راسخ عند العرب. ومن المحظوظ مع ذلك أن ظروف سجن موسى الكاظم لم تكن ردئه لأنه سجن في قصر ولم يسجن في المطبق: السجن العباسي السيء الصيت. فاحتمال موته نتيجة السجن ضعيف. ويبقى البت في ذلك رهناً بعالم الغيب الذي لا تدركه الأبصار!..

وفاة ثائر شاب:

حاول الشيعة الاستفادة من تخلخل أوضاع العراق بعيد حرب الأمين - المأمون فبدأوا تحركاً في الكوفة. وكان أبرز القادة من أهل البيت في ذلك الوقت شاب يدعى محمد بن ابراهيم بن طباطباً، من نسل الحسن بن علي، هو الذي تصدى لقيادة التحرك الشيعي. وقد أظهر هذا القائد وعيًا اجتماعياً متقدماً تعرفنا عليه من رواية أوردها أبو الفرج كنت قد اقتبستها في بعض كتاباتي السابقة ولابأس من إعادة هنا لأهميتها في إلقاء الضوء على مصير هذا الزعيم. قال أبو الفرج بعد أن تحدث عن استعدادات ابن طباطباً للخروج على الدولة^(٢٨):

... فبينا هو في بعض الأيام يمشي في بعض طريق الكوفة إذ نظر إلى عجوز تتبع أحمال الرطب فتقطق مايسقط منها فتجمعه في كساء عليها رث. فسألها عما تصنع بذلك فقالت: «إني امرأة لارجل لي يقوم بمؤونتي ولدي بنات لا يُعْدُن على أنفسهن شيء فأنَا أتبع هذا من الطريق وأتقوته أنا وولدي». فبكى بكاءً شديداً وقال: «أنت والله وأشباهك تخرجنني غداً حتى يسفك دمي» ونفذت بصيرته في الخروج.

ولابن طباطباً أبيات يذكر فيها هذه الحادثة وصلتنا عن طريق

(٢٨) مقاتل الطالبيين ص ٥٢١ وما يليها .

الصفدي، الذي قال إنه كان خطيباً شاعراً، والأبيات واضحة في دلالتها على الحادثة ولو أنها ليست متينة السبك وسنرويها هنا لأنها تضيف عنصر توثيق لرواية أبو الفرج^(٣٩):

ويؤخذ من أحاديث المؤرخين عن حركة ابن طباطبا أنه اكتسب شعبية واسعة في الكوفة وأريافها وبواديها، فابن كثير يقول: اتفق أهل الكوفة على موافقته واجتمعوا عليه من كل فج عميق ووافت إليه الأعراب من نواحي الكوفة^(٤٠) والطبراني يقول: أتاه الناس من نواحي الكوفة: الأعراب وغيرهم^(٤١) والاصبهاني يقول: «تبعه أهل الكوفة كالجراد المنتشر». ولغرابة في أن يتبعه أهل الكوفة الذين عاشوا في انتظار من ينادي باسم أهل البيت حتى يهرعوا إليه يراودهم حلم الخلافة لعلوية التي مرت عليهم كالسحابة العجل. أما الأعراب فقد وجدوا في ظهور هذا التأثير الحساس فرصة للاشقاء من جوع البدية . ولا يعرف جوع البدية إلا من يكابده . ولقد أثارت شخصية ابن طباطبا هذه خيال الناس والرواية فنسجوا لها أخباراً غريبة تتسم مع طعمها الخاص . قال أبو الفرج إن زيد بن علي تبأّ بظهور محمد بن طباطبا فقال: «يابيع الناس لرجل منا عند قصر الضررين (موقع في الكوفة) سنة تسعة وتسعين ومئة في عشر من جمادى الأولى، يباهي الله به ملائكته...» وفي رواية أخرى يقول أخوه محمد بن علي الباقي: «يخطب على أعوادكم يا أهل الكوفة سنة تسعة وتسعين ومئة من جمادى الأولى رجل منا أهل البيت يباهي الله به ملائكته» . ولست أتهم أبو الفرج فليس هذا من نسج خياله وإنما خيال الذين رأوا التأثير الشاب وعاشوا على مقرية من تاريخه.

(٣٩) الواقي بالوفيات ١ / ٣٣٧ الترجمة ٢١٢ .

(٤٠) البداية والنهاية ١٠ / ٢٤٤ حادث ١٩٩ هـ .

(٤١) التاريخ . حوادث ١٩٩ هـ

كان ابن طباطبا بحاجة إلى قائد عسكري يعبئ تلك الجماهير التي اتبعته كالجراد المنتشر ويسلحها ويقودها لمحاباة العباسيين، فوجد ضالته في ضابط متشيع اسمه السرّي بن منصور الشيباني وكتبه أبو السرايا. وكان من المغامرين الطموحين الذين تحركهم نزعة تمرد مشوبة بالروح العسكرية. وقاد هذا الضابط الكفوه جماهير الكوفة وأعرابها في معارك ظافرة ضد الجيوش العباسية.. لكن الزعيم الشاب ابن طباطبا لم يلبث أن مات فجأة بعد معركة حاسمة سجل فيها أبو السرايا نصراً كبيراً.

كيف مات؟

يُفهم من «مقاتل الطالبيين» أن المعركة كانت قيد الإعداد من فريقها لما اعتل محمد بن ابراهيم عليهما السلام فيها. ولتأكيد قصة المرض يقول أبو الفرج أن الحسن بن سهل - متولى العراق للمأمون الذي كان حينذاك في خراسان - كان يعرف علم النجوم وأنه كان ينظر في نجم محمد فيراه محترقاً فيبادر في طلبه.. وبعد أن يتحدث عن تفاصيل المعركة التي انتصر فيها أبو السرايا ويدرك عودته إلى الكوفة يقول إنه دخل على محمد بن ابراهيم وهو يجود بنفسه، أي يختضر، وأن محمداً انتقده بشدة لعدم مراعاته الأصول الشرعية في الحرب. ثم أن أبو السرايا رأى في وجه محمد الموت فالتمسه أن يوصيه فأوصاه. ثم مات من ساعته ودفنه أبو السرايا في الغري (النجف). وتولى بعده الزعامة حميد لزيد بن علي صغير السن تم اختياره من قبل وجوه أهل البيت أنفسهم وقبل به أبو السرايا بناء على ذلك.

لكن مصادر رئيسية أخرى أثارت الشك حول الموت المفاجئ لابن طباطبا، الذي لم يكن قد ناهز الثلاثين آنذاك. فالطبراني يقول: «ذكر أن أبو السرايا سمه. وكان السبب في ذلك فيما ذكر ان ابن طباطبا لما

أحرز ما في عسكر زهير - يشير إلى الجيش العباسى المهزوم - من المال والسلاح والدواب منعه أبا السرايا وحظره عليه، يقصد أنه منع أبا السرايا من التصرف فيه. وكان الناس له - يعني ابن طباطبا - مطيعين فعلم أبو السرايا أنه لا أمر له معه فسمّه». ويستطرد الطبرى أن أبو السرايا أقام مكانه غلاماً أمراً حدثاً هو محمد بن محمد بن زيد فكان أبو السرايا هو الذي ينفذ الأمور... والطبرى باستعماله الفعل المجهول «يُذكر» يسجل تهمة دون أن يجزم بها. وبهذه الصيغة يرد خبر مماثل عند ابن كثير وابن العماد. لكن ابن الأثير الذى يعتمد على الطبرى كأساس يخالفه فيثبت التهمة ضد أبو السرايا^(٤٢). وقد ساق ابن خلدون خبر ابن طباطبا فلم يتطرق إلى التهمة وإنما نص على أن أبو السرايا هو الذى نصب الغلام الزيدى واستبد عليه^(٤٣). وفي «فوات الوفيات» تفاصيل مشابهة لما في «المقاتل» لاشك في أنها مقتبسة عنه. هكذا فالطبرى وابن كثير وابن العماد يتهمون أبو السرايا دون أن يبيتوا في التهمة، وابن خلدون يذكر استبداده في الأمر بعد وفاة الزعيم ونصب الغلام الزيدى. وابن الأثير بيت فيها مستدركاً على الطبرى، والاصبهانى يتحاصل ذلك كلباً ويجعل موت ابن طباطبا نتيجة علة لم يذكر ماهي. ونحن مضطرون في ضوء هذا التضارب في الروايات إلى وضع القضية على ملاك الوفيات المشبوهة. ويمكن مع ذلك أن نفهم الباعث على تجاهل التهمة في مقاتل الطالبين؛ فكلا الطرفين في هذه القضية: المتهم والمجنى عليه كان من الشيعة. فهي إذن قضية داخلية تخصل حزب المؤرخ ولا يجوز نشرها على الناس. وإذا انكشف منها جانب لابد من تفطيته بالطريقة النموذجية التي تمت في مقاتل الطالبين. لقد فصل أبو الفرج وهو شيعي زيدي قصة الموت

(٤٢) الكامل . حوادث ١٩٩ هـ . جميع الإحالات المتعلقة بمسألة ابن طباطبا فيما يتعلق بالمصدر من ٣٨ - ٤٢ هي نفسها .

(٤٣) التاريخ / ٢٤٢ .

المفاجئ لابن طباطبا بشكل يدل على أنه تقصد دفع التهمة عن أبو السرايا مع علمه بها.

من جهتي أنا، ويرغم اضطراري إلى وضع القضية في خانة الوفيات المشبوهة وقوفاً عند المقدار الذي تضمنته المصادر الرئيسية، فإن قناعتي تميل بي إلى تأكيد الاغتيال. فهذه القضية الملتبسة قد اشتملت في جوهرها على تعارض خطير بين قطبين متباينين: زعيم مبدئي يريد أن يستولي على الأموال حتى يعطيها للفقراء، وضابط مغامر يريد أن يحوز الأموال لنفسه ولجماعته. ومع أن كلاهما متفق على الهاتف لآل البيت فإن الاتهافات يمكن أن تطوي تحتها مواقف مختلفة. لقد أراد أبو السرايا أن يقيم سلطة لآل البيت ترتفع فيها رأيهم وينادى بشعارهم، على أن يتقاسم أهل السلطة، ومنهم وجوه أهل البيت، مغانها بالطريقة السائدة فيعطون ما لله لله وما للقيصر لقيصر. أما ابن طباطبا فكان يريد لها سلطة لأهل البيت ينعم الفقراء في ظلها بالشعب ولا ينال هو ومن معه منها إلا قدر الحاجة.

ليس من شك في أن هذا الفتوى لو لم يمتن في ذلك اليوم، لما في يوم آخر. وأنه لو أفلت من المكيدة وعاش حتى ينتصر تماماً ويقيم سلطته التي كان يتوق إليها، فلن يفلت من عواقب التمرد والانشقاق في معسكته.

المؤمنون

توفي المؤمنون في طرسوس، من مدن تركيا في الوقت الحاضر، وثمة اتفاق على أنه توفي من حمى أصابته بعد جلسة على نهر في تلك المدينة أكل فيها رطباً جيء به من بغداد. وكان المؤمنون في الثامنة أو السابعة والأربعين، ولم تُلق المصادر الأمهات ظلاً من الشك على وفاته، لكن ابن العماد الحنبلي يقول إن «مادة في حلقة تحركت عليه فبُطّلت

قبل بلوغها غايتها فكانت سبب وفاته^(٤٤).

لماذا بطت هذه المادة قبل أن تضج؟ وهل كانت مجرد خطأ من الطبيب؟

الجواب عند ابن أبي أصيبيعة، وهو مؤرخ علم لاسياحة. ففي ترجمة للطبيب السرياني يوحنا بن ماسويه تحدث هذا المؤرخ العالم، الذي كرس سفره الجليل لترجمة أناس كان يحبهم بحكم محبته للعلم، تحدث عن شخصية يوحنا فتجلت لنا من حديثه شخصية مثقفة مسيحي خارج عن سلوك الملة يستخف بطقوسها ورجالها ولا يلزم نفسه بشيء من قواعدها في التفكير أو السلوك. فهو قريب من غرار زنديق متعالي لم يعجبه الدين ولكن ليس من أجل حالة أفضل بل للتخفف من قيوده الأخلاقية.

قال ابن أبي أصيبيعة بعد أن ذكر أكل المؤمن للرطب^(٤٥):

«.. ثم نهض محموماً. وقصد فظهرت في رقبته نفخة كانت تعتمده ويراعيها الطبيب إلى أن تضج ففتح وتبرأ. فقال المعتصم للطبيب ابن ماسويه: ما أطرف مانعن فيه! تكون الطبيب المفرد المتوحد في صناعتكم وهذه النفخة تعتاد أمير المؤمنين فلا تزيلاها عنه وتتلطف في حسم مادتها حتى لا ترجع إليه. والله لئن عادت هذه العلة عليه لأضررين عنك.. وانصرف ابن ماسويه فحدث بعض من يثق به بما قاله المعتصم فقال له: تدري ماقصد المعتصم؟ قال: لا. قال: قد أمرك بقتله حتى لا تعود النفخة إليه وإنما يعلم أن الطبيب لا يقدر على دفع الأمراض عن الأجسام وإنما قال لك لاتدعه يعيش ليعود المرض إليه. فتعامل ابن ماسويه (تمارض) وأمر تلميذا له بمشاهدة النفخة والتردد إلى المؤمنون نيابة عنه.

(٤٤) شذرات الذهب حوادث ٢١٨ هـ .

(٤٥) عيون الأنبياء، في طبقات الأنبلاء، ط - بيروت ١٩٦٥ . ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

ترجمة يوحنا بن ماسويه من الباب الثامن .

والתלמיד يجيئه كل يوم ويعرف حال المؤمن وما تجده له. فأمره بفتح النفخة. فقال له: أعيذك بالله ما حمرت ولا بلغت إلى حد الجرح، فقال له: امض وافتحها كما أقول لك ولا تراجعني. فمضى وفتحها ومات المؤمن».

وعلق ابن أبي أصيبيعة على ذلك قائلاً: «إنما فعل ابن ماسویه ذلك لكونه عديم المروءة والدين والأمانة وكان على غير ملة الإسلام وليس له تمسك بدينه أيضاً». وابن أبي أصيبيعة يقول، إذا صحت روايته، بواجبه العلمي الأخلاقي حين يدين ابن ماسویه على هذه الخيانة، ولكن كان عليه أن يبدأ بالمعتصم لأنه الأمر، والطبيب الخائن هو المأمور. ومن المعلوم أن المعتصم هو أخ المؤمن وولي عهده ولعله فكر أن مدة أخيه قد طالت فخاف أن لا يلحقه دور في الخلافة فاستعجل موته. ولئن كان قد حسب هذا الحساب لقد أصاب لأن خلافته لم تدم أكثر من ثمانية سنوات ويخبرنا الطبرى أنه حين احتضر قال: لو علمت أن عمري هكذا قصير لم أفعل ما فعلت^(٤٦).

روى الطبرى أن ابن ماسویه كان عند المؤمن ساعة احتضاره وكان عنده رجل يلقنه الشهادة فقال له ابن ماسویه: دعه فإنه لا يفرق في هذه الحال بين ربه ومامي.. ففتح المؤمن عينه وأراد أن يبسطش به فعجز عن ذلك وأراد الكلام فعجز عنه^(٤٧). إن هذا الاستخفاف يصدر عن نفس الخلفية التي عرفناها لهذا الطبيب ولكنه يحمل من جهة أخرى دليل اطمئنان على عدم العقوبة من ولي العهد وال الخليفة المقرب. وإنه ليبدو لي فضلاً عن ذلك أن ابن ماسویه لم يكن ليستخف بال الخليفة وهو يحتضر لو أنه كان يموت ميتة طبيعية. إن مثل هذا التصرف يمكن أن يمثل سلوك متآمر يشهد ساعة احتضار ضحيته؛ حيث يمتزج الشعور الخفي بنشرة القدرة على الإيقاع بالغير بشيء من الاستصار

(٤٦) التاريخ . حوادث ٢٢٧ هـ .

(٤٧) نفسه . حوادث ٢١٨ هـ .

يتحسسه متآمر سيء السلوك تجاه ضحيته التي تجسدت فيها فاعليته أمام عينيه، بعد أن تكون قد فقدت قدرتها على الاستجابة. بناء على هذه الملابسات يكون المؤمن قد مات اغتيالاً. لكن سكوت المصادر الرئيسية عن ذلك يمنعنا من البت في رواية ابن أبي أصيبيعة التي تبقى في هذه الحال ترجيحاً يحتاج لكي يثبت فيه إلى المزيد من الروايات الموثقة.

موت شاعر:

كان ابن هاني الأندلسي باطنياً صارماً فخرج من الأندلس مضطراً واتصل ببعض المتفذين في المغرب قبل أن يكتشفه العز لدين الله الفاطمي فيصبح شاعره الخاص. وكان يمدح العز عن عقيدة كما كان نظيره المشرقي أبو الطيب المتنبي يمدح سيف الدولة عن قناعة.. وهو أول شاعر يتكلم عن التشيع بصوت مجلجل كانت تدوي من خلاله أصداء الانتصارات الكاسحة التي حققها الفاطميون في شمال أفريقيا. وكان ابن هاني شاعراً فحلاً من أصحاب المظلولات. ولشعره من شدة الإيقاع وجمال العبارة وعمق المضمون ما يعطيه سلطة النفاذ إلى قلوب متلقيه في مجتمع يشكل الشعر جزءاً عضوياً من ثقافته. وكان هو يشعر بثقل وطأته على أعداء الدعوة من أمويي الأندلس وعباسيي المشرق وتمنيهم لوظفروا به:

لو علقته من أمية أحبل لجُبَّ سِنَامْ من بُنَى الشِّعْرِ تامِكُ
ومانقِمَوا إِلَّا قَدِيمٌ تَشَيَّعِي فَنْجَى هِزَّرَا شَدَهُ المَتَدارُ

جب: قطع. تامك: سمين مكتنز.

ولكن هل نجاه شده المتدارك حقاً؟
ثمة اتجاه عام في المصادر إلى أن الشاعر الباطني قد مات اغتيالاً.

ويتفق المؤرخون على أنه كان مع المعز الفاطمي حين فتحت مصر وقرر التوجه إليها، وأنه استأذن خليفته وإمامه ليعود إلى المغرب فأخذ عياله ويلحق به، وأنه تجهز وعاد. ولما وصل إلى برقة في ليببيا وهو في طريقه إلى مصر مات فجأة. لكن كيفية موته غير متفق عليها. يصر كل من ياقوت والصفدي وابن تغري بردي وأبو الفدا وابن خلكان - في روایتين - بأنه قتل^(٤٨)، بينما يذكر لسان الدين بن الخطيب أنه سكر مع مضيقه ونام عرياناً فمات متجمداً^(٤٩). ونومه عرياناً يتكرر في المصادر لكنها عدا ابن الخطيب، لا تفسر موته بالتجدد وإنما تتراوح بين التساؤل عن سبب موته والتصریح أنه وجد مخنوقاً في ساقية بتکة سراويله. ويشير شارح دیوانه الدكتور زاهدی الشک في هوية المضیف^(٥٠) وقد ذکره ياقوت على أنه من أعيان برقة لكنه لم يصرح بشيء عنه. وأنا مع شکوك الدكتور زاهدی، لكن روایة ابن الخطيب تمنعني من الجزم بالاغتيال آخذنا في الحسبان أن ابن هانی كان سکيراً فلا يستبعد منه أن ينام عرياناً بعد أن تلع الخمرة برأسه. ويعنی مع ذلك من ترجیح هذه الروایة والاكتفاء بها للبت في مصير الشاعر كونها شاذة عن مجمل الروایات الأخرى التي نصت على أنه مات میة غير طبيعية. ويمكن أيضاً أن نتساءل أيضاً كيف يتم لشاعر خطير أن يبلغ به الاستهتار والتراخي إلى حد فقدان الوعي والنوم عرياناً؟ ولماذا ترك دار مضييفه لينام في الطريق؟ إن مثل هذه التصریفات يمكن أن تصدر عن أبو نواس وليس عن صاحب رسالة کابن هانی. ولعمري لئن كان قد فعلها لقد بالغ في الاهتمام والتفریط وإلا فهو ضحیة مؤامرة أمومية أو عباسية..

(٤٨) معجم الأدباء، ٩٣/١٩ ترجمة محمد بن هانی .

الواقی بالوفیات . الترجمة ٢٤٠ . - الترجمة الزاهرة ٦٨/٤ حادث ٣٦٢ .

المختصر ١١٢/٢ (ذكر مسیر المعز لدين الله العلوی إلى مصر) .

وفیات . . . الترجمة ٦٤٠ . وقد اقتبسها ابن العماد في حادث ٣٦٢ .

(٤٩) الإحاطة ٢٩٣/٢ .

(٥٠) تبین المعانی في شرح دیوان ابن هانی - مصر ١٣٥٢ ص ٢٢ من المقدمة

ثاني ملوك غرناطة

هو محمد بن محمد الملقب بالفقيه. لم يكن من المعدودين فيهم لكنه كان أطولهم حكمًا فقد استمر في السلطنة ثلاثين عاماً. قال ابن الخطيب إنه مات فجأة وهو يصلи المغرب. وفي صباح اليوم التالي حضر طبيب يدعى ابن السراج فسأل عن آخر أكلة أكلها فقيل له أنه أكل كعكاً وصل إليه من ولی عهده وهو ابنه محمد. يقول ابن الخطيب: فقال، أي الطبيب ابن السراج، كلاماً أوجب نكته فامتحن بالسجن الطويل والتمسست الأسباب الموصلة إلى هلاكه، ثم أجلی إلى العدورة (وهي مجاز الأندلس إلى المغرب) ثم دالت الأيام فعاد إلى وطنه مستأنفًا ماعهده من البر وفقده من التجلة^(٥١).

لم أكن في حاجة إلى وضع السلطان محمد الفقيه في باب الوفيات المشبوهة مع هذا البيان الوافي من لسان الدين لولا أن مصادره الأخرى دأبت على القول بأنه توفي سنة ٧٠١ هـ دون أن تضيف شيئاً.

على أي حال، وبموجب مؤرخ غرناطة الأكبر، يكون ثاني ملوك غرناطة قد لقى المصير الذي يمكن أن يكون قد سبقه إليه المؤمنون، وللسبب نفسه. فقد خاف ولی العهد أن تطول المدة فلا يناله نصيبه من الحكم فسعى للتعجيل برحل صاحبه. والكلام الذي أوجب نكتة الطبيب، الملزوم بقوانين ممارسة المهنة، لا يمكن أن يتجاوز الإيماء إلى كون الكعك الذي أرسله ولی العهد مسموماً. ولعل السم كان من اللطافة بحيث مات المسموم فجأة ودون آية أعراض. أما مصدر نكتة الطبيب فهو ولی العهد الذي تسلط بعد الوالد المسموم. وأما عودة الطبيب إلى وطنه بعد تفريحه فتمنت بعد خلع الغادر وهو ما يعنيه ابن الخطيب بعبارة: «ثم دالت الأيام». وحدث خلع ثالث ملوك غرناطة مشهور ولاعلاقة له بموضوع بحثنا.

. ١٦٢/٢ (٥١) الإحاطة

احتياطات ضد الاغتيال

كان من المتوقع وال الطبيعي للمشتغلين في السياسة أن يتخدوا ما يحرسهم من مخاطر الموت اغتيالاً. وقد تفاوتت وسائل الاحتراز باختلاف وسائل الاغتيال. وفيما يخص المباغطة بالسلاح كانت الوسيلة الأرأس هي الحراسة المسلحة، مع التحوط والحدر. وأقدم من اتخاذ الاحتياطات ضد هذه المخاطر هو معاوية بن أبي سفيان بعد محاولة اغتياله التي أشرنا إليها في القسم الثاني. وقد اتخذ معاوية لنفسه مقصورة يصلى فيها لكي يحتاط ضد المباغطة أثناء الصلاة. وأصبح الخلفاء ومن يليهم من المسؤولين في المركز والأمصال لا يسيرون إلا بحراسة. ومع تعقد جهاز الدولة والتوزع في أبطرة مظاهرها صار الخلفاء يعيشون ويمارسون مهامهم في قصور حصينة كانت تتحول بالتدريج إلى مدن متكاملة المرافق مفصولة عن العاصمة. وكان بعض السلاطين يبالغون في تكثيف الجو الارهابي المحيط بهم فيتخذون لهم أسوداً تقاد مع مواكبهم أو تربط في مداخل قصورهم. وكان بعضهم يجلس مجلسه العام وعلى جانبيه أسود مربوطة بالسلسل. ولما تصاعدت موجة الاغتيالات الباطنية ظهرت وسيلة جديدة لل الاحتياط ضد الاغتيال وهي الدروع الواقية التي كانت تلبس تحت الثياب لإبطال مفعول السلاح. وقد اتخذت هذه الوسيلة لأن الإسماعيليين كانوا في الغالب يستعملون الخناجر والسكاكين في تنفيذ ضرباتهم.

فيما يخص الاحتراز من السم، أورد ابن عساكر حديثاً عن البيهقي يفيد أن النبي كان لا يأكل الهدية حتى يأكل منها من أهداها إليه^(٥٢). وكان السبب هو تعرضه لمحاولة تسميم حين أهدت إليه امرأة

٥٢) تهذيب تاريخ دمشق ٢٢٨/٦ .

شاة مسمومة في أيام فتح خيبر. وكان قد أكل من هذه الشاة ولكنها لم تضره كثيراً. ولو أن كتب السيرة تزعم أن هذه الأكلة كانت سبباً في وفاته التي جاءت بعدها بأكثر من أربع سنوات. وهو زعم أريد به القول أن النبي مات شهيداً. وبعد أن كثرت حالات التسميم في الأحقياب التالية أخذت مسألة الاحتراز من السموم أهمية أكبر. وبالطبع فإن الجهة الأكثر اهتماماً بهذه المسألة هم الحكام. وقد تضمن كتاب دهاء نصر عنوانه «المنهج المسلوك في سياسة الملوك» ألفه عبد الرحمن بن نصر لصلاح الدين الأيوبي فصلاً هاماً عرضت فيه وسائل للكشف عن السموم في الأطعمة والمشروبات والملابس والأواني وغيرها مستمدة من كيمياء السموم مع شيء من علم الحيوان وعلم النفس. ولأهمية هذا الفصل أنقله بنصه المأخذوذ من طبعة القاهرة لسنة ١٢٢٦ هـ.



في معرفة ما يكاد به الملوك في غالب الأحوال

«... أكثر مارأينا يحدث في غالب الأحوال من أمور نحن ذاكروها إن شاء الله تعالى. فمن ذلك السموم القاتلة التي يتلطف بها الأعداء في الحيلة بوصولها إلى الملوك على يد النساء والغلمان. وهو يُصنع غالباً في عشرة أشياء: في السرج والسرير والكرسي والحلوى والآنية والطعام والفاكهه والثياب والفراش. وسنذكر من العلامات الواضحة في هذه الأشياء ما فيه كفاية للقطن بحيث إذا رأها علم أنه مسموم. وينبغي للملك أن يتفقد ثيابه كل يوم وفراشه أيضاً وحاشيته الذي على سرير الحصان وكرسيه الذي يجلس عليه، فإن علامه ذلك إن كان مسموماً أن يظهر في صفاء ألوانها مع كالرسخ^(*) يضرب إلى سواد منغير وسخ، وهدبها وحواشيه في نظر العين كأنها بالية. وأما ظاهر السرج والسرير والكرسي إذا كان ملطوخاً بالسم يكمد لونه ويعلوه كالغبرة. وأما الحل والآنية وما يستخرج من معادن الأرض كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد فإن ذلك كله إن كان مسموماً يعلوه كالرسخ. وأما أواني الخزف والفالخار فإنها إنْ كانت مسمومة تحدث دسومة وزهومه (رائحة اللحم الفاسد) وربما أفرط صفاء لونها

(*) الرسخ هو الكاغد الدهين الذي لا يثبت فيه الحبر ويكون لونه عادة مائلاً إلى القاتمة مع لمعة .

حتى رؤي فيها بريق ليس من ذاتها، وربما ذهب بريقها الذي هو من ذاتها.

وأما الطعام المسموم فيستدل عليه من وجهين أحدهما بالنار، فإن الطعام المسموم إذا وضع منه شيئاً في النار لم يصعد دخانه مستطياً إلى الهواء بل يدور على ذلك

الطعام ويسمع له صوت. وأيضاً يكون طرف ماينبعث من النار كأنه عنق الطاووس. وأيضاً مما يظهر منه إذا احترق رائحة منتة. الوجه الثاني أن يعرض الطعام على الطير والدواب التي هي معدة في دار الملك لمعرفة الطعام المسموم، أما الطير فمنها الغراب فإنه إذا أكل من الطعام المسموم انكسر صوته، أما الصردخ والقفاع فإنهما إذا شما الطعام المسموم صوتاً بأعلى صوتهما. ومنها طائر من جنس الإوز الصيني يقال له الهيش فإنه إذا رأى الطعام المسموم وشم رائحته هرب منه ورجع يتعرّض في مشيته. ومنها الكركي فإذا شم رائحة الطعام المسموم وأكله يدور حتى يظن أنه غشي عليه. ومنها الفواخت والععقع فإنهمما يموتان بأكل الطعام المسموم وكذلك إذا شما رائحته. ومنها الطاووس فإنه إذا رأى الطعام المسموم تشوّف إليه وطفق يأكله وبهواه. ومنها طائر من طيور الماء أحمر العينين يقال له حيوجين فإنه إذا نظر إلى الطعام المسموم خر إلى الأرض مغشياً عليه. وأما الدواب المعدة لذلك فمنها السينور فإنه إذا أكل من الطعام المسموم أو شم رائحته نفر من موضعه ولم يستقر فيه. ومنها القرد فإنه إذا قدم إليه المسموم أيضاً لم يتمالك حتى يهرب منه ويصعد في الأشجار والحيطان. فهذا كله يستدل به على الطعام المسموم. فينبعي للخادم المقدم للطعام أن يمتحنه بالنار ويعرضه على الطير والدواب التي ذكرناها قبل إحضاره بين يدي الملك. وإذا كان الطباخ بصيراً حاذقاً عرف السم إذا طرح في القدر بالأمرة (العلامة) الدالة عليه فإن قدر

الأرز إذا وضع فيها السم أبطئ نضجها وإذا أنزلت عن النار انعقد فيها سريعاً وصلب حبه ويفور من القدر بخار كلون عنق الطاووس. وقدر المرق إذا وضع فيها السم فلا يلبت إلا قليلاً حتى تتشف المرقة منها ويبقى اللحم يابساً لامرة عليه. ومهما بقي منه تغير لونه وكدر. وأما معرفة السم في الشراب المسموم فإن كل شراب حلو إذا طرح فيه السم يظهر فيه خط مستطيل كلون النحاس ويظهر من المحيط خطوط من الخضراء والصفراء والسماء. ويظهر في ماء العسل خط كلون شعاع الشمس ويظهر في الماء والنبيذ خط أسود. وأما معرفة الفواكه المسمومة فإن مالم يدرك منها يظهر للعين كأنه مدرك (ناضج) والتي قد أدركت منها تظهر كأنها لم تدرك لتفيرها وانقباضها، وكل رطب منها تراه كالملهي وكل يابس تراه منقبضاً متثنجاً وجميع الفواكه يذهب صفاء لونها ويعلوه غبرة وكدرة ويصير الذين منها صلباً والصلب منها ليناً.

واعلم أن وضع السم في بعض هذه الأشياء هو صانع مكيدة من مكاييد الأعداء من النسوان أو الغلمنان أو الخدم وغيرهم لابد أن يظهر عليه من الريبة إمارة لا يخفى فيها على الفطن الليب، فينبغي للملك أن يتصرف وجوه خدمه وغلمانه وجواريه ونسائه في كل وقت فإن المربك لا يملك نفسه أن يصفر لونه أو يخضر أو يبتلع ريقه ويختف فؤاده أو يغض على شفته السفلية أو يكثر تلفته وترعد فرائصه أو يتعرث في مشيه أو يكثر تثاؤبه أو يعرق جبينه أو يفتل أهداب ثيابه ويعبث بها أو ينكش الأرض بإيمانه الكبيرة من رجله أو ينقطع عما يريد أن يتكلم به أو يكثر القيام في العمل الذي يعمله ولم يتمه لغير عذر، فجميع هذه الامارات تدل على الريبة، فليراعها الملك من متولي طعامه وشرابه، ومتولى خزانة ثيابه وفراشه وسروره دوابه وغيرهم من خدم داره.

أما الأحوال التي يترصدها أهل المكابد في الغالب فمنها الموضع الضيقة والجهات المجهولة من الطرق فلا ينبغي أن يسلكها حتى يكون أمامه خبير بذلك الموضع ويقدمه في ذلك جماعة من أعوانه. ومنها ازدحام المواكب عليه في الموضع الضيق أو في الأعياد أو المحاذيف فلا يؤمن أن يلتج بين خواصه من يريد له شرًا. ومنها الإمعان في طلب الصيد والانفراد فيه عن الخاصة وثبات الأعوان، فلا يؤمن أن يدس عليه أهل العداوة من يوقع به الفعل أو يكتن له الأعداء على الخيول السريعة في الموضع الوعرة، أو يعرض له أحد السباع الضاربة عند انفراده. ومنها الورود على الأنهر فإن اغتيال المرء صاحبه في الماء الجاري أسهل منه على ظهور الخيل لأن الماء معين له على هربه لاسيما إذا كان رجال الملك وراء ظهره فينبغي أن لا يردها حتى يتقدمه من أعوانه من يخبر شطوطها ومشارعها. ومنها حالة شدة المطر وحال شدة الحر وحال ظلام الليل فإنه في هذه الأحوال تقل الحفظة (الحراس) ويسُغل كل منهم بمصلحة نفسه. ومنها حال سروره ولهوه وطريقه في مجلسه وسكره وشرابه فإن الحفظة أيضاً يسخرون أو ينامون فيتمكن منهم المحثال. فليراع الملك جميع ماذكرناه وما يخطر بباله من أشباه ذلك وأمثاله مع تسليمه الأمر لله تعالى وقضائه وقدره.

الضهرس

٥	• فائدة لغوية
٧	الفصل الأول: الحكم الشرعي وتجارب العهد النبوى
٩	• اغتيال زعماء يهود
١٠	• كعب بن الأشرف
١٣	• استئاج فقهى خاطئ
١٣	• سلام بن أبي الحقيق
١٥	• ابن سنينة
١٦	• اغتيال امرأة
١٨	• أبو عفك -
١٨	• اغتيال زعيم قبيلة
١٩	• اغتيال زعيم قبيلة آخر
٢٠	• اغتيال عبالة -
٢٤	• خطة فاشلة لاغتيال أبو سفيان
٢٩	الفصل الثاني: في الخلافة الراشدية
٢٩	• اغتيال سعد بن عبادة
٣٤	• اغتيال عمر بن الخطاب
٤٥	• اغتيال علي بن أبي طالب
٥٢	• اغتيال مالك الأشتر
٥٤	• دلالات مستخلصة من الاغتيالات الراشدية

الفصل الثالث: في الخلافة الأموية

- اغتيال الحسن بن علي ٥٩
- اغتيال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ٦٤
- اغتيال عمر بن عبد العزيز ٦٧
- علامه استفهام ٧١
- وفيات مشبوهة ٧٣
- وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية ٧٣
- وفاة مروان بن الحكم ٧٤
- وفاة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ٧٤
- وفاة يزيد الناقص ٧٦
- علي بن الحسين وابنه محمد الباقر ٧٧
- الاغتيال من جانب المعارضة ٧٨
- اغتيال جلاد ٨٠
- اغتيال قائد عسكري ٨١
- اغتيال قائد آخر ٨٢

الفصل الرابع: في العصر العباسي

- مقدمة ٨٥
- على يد السلطة ٨٦
- اغتيال ادريس بن عبد الله ٨٦
- تصفية الوزير ثم ولی العهد ٨٩
- مقتل المتوکل ٩٤
- اغتيال أبو سعيد الجنّابي ٩٥
- اغتيال زعيم قرمطي آخر ٩٦
- سلطانة تركية تقتل أولادها ٩٨
- على يد المعارضة ٩٨

١٠٢	● اغتيال معن بن زائدة
١٠٣	● اغتيالات باطنية
١٠٣	● قتل المقتدر بالله العباسى
١٠٤	● اغتيال أمير حرب تركي
١٠٥	● اغتيال نظام الملك
١٠٧	● اغتيال الامر بأحكام الله الفاطمي
١٠٩	● اغتيال أمير حرب إرهابي
١١٠	● اغتيال حاكم صور الصليبي
١١١	● اغتيال وزير سلجوقي ظالم
١١١	● اغتيالات باطنية أخرى
١١٢	● وقفة عند اصطلاح حشاشين
١١٤	● اغتيالات أندلسية
١١٦	● اغتيال السلطان اسماعيل بن فرج - أبو الوليد
١١٨	● اغتيال الوريث
١٢٠	● وفيات مشبوهة
١٢٠	● أبو حنيفة
١٢٤	● موسى الكاظم
١٢٤	● وفاة ثائر شاب
١٢٨	● المؤمن
١٢٩	● موت شاعر
١٢٣	● ثاني ملوك غرناطة
١٢٤	● احتياطات ضد الاغتيال
١٣٧	● في معرفة ما يكاد به الملوك

